٣٧

مجلة
روايات احلام

فراشة المحبة

عينان في الأسر

مجلة روايات احلام

فراشة المحبة

عينان في الأسر

«. بعض الناس، يا آنسة، يرون ما يرغبون في رؤيته فقط. وأنت حاولت تقليد الرجال لكنك تحولت إلى فتاة أنانية سيئة الطباع. لن تجد من يتزوجها بسبب لسانها السليط.

. أنت تتهمني بالأنانية، سيدي الكونت، وسأثبت أنك منافق كاذب. أنا مستعدة للزواج ولكن شرط أن توافق على أن تكون أنت العريس». . . .

كان على اليكس أن تفكر كثيراً قبل أن ترمي تحديها في وجه النمر، لكن لسانها جنى عليها وما عاد ينفعها الندم...

لبنان ٥٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ٥٠ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ٥٠٠ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

فراشة المحبة

١ ـ فتاة العقل

ـ اليكس.. إذا لم تقرري الزواج قريباً، اقسم أن ألتحق بالدير، أو أعزل نفسي حتى أموت.. أو..

ـ أوَ اتخذت التمثيل مهنة؟ إن من قال إن الدنيا مسرح كبير، كان دون شك يفكر في أمثالك!

قست أسارير ساشا المتوسلة ثم اعتلتها تكشيرة متجهمة، فيها كره لأختها الكبرى:

ـ «پاپا» يقول دائماً إنك يجب أن تكوني صبياً.. لكن مهما حاولت جاهدة فلن تعوضي عنه الصبي الذي لم يرزق به.

كان ينقص ساشا الإدراك السريع، فهي غارقة في عالمها الأناني الى حد يجعلها لا تتأثر بمعاني تعليقها.

التفتت الكسندرا الى شقيقتها، فسطعت أشعة الشمس المشرقة المطلة من نافذة القصر المبني على قمة صخرة على بحر إيجة، وهب هواء مشبع برذاذ البحر فحرك شعرها البني الأصهب وأضاف لمعاناً الى العينين الزمرديتين اللتين كشفتا في تلك اللحظة عن قساوة الجوهرة، وهما تقعان على وجه اختها. عندما تقدمت الى الأمام لم يستطع حتى الغضب نزع الرشاقة من جسدها الذي يبدو للوهلة الأولى صبيانياً نحيلاً، لكن سرعان ما

يكتشف الناظر خطأ اعتقاده وذلك حالما يلاحظ ثوبها الحريري الملتصق بحنايا جسدها، والمظهر استدارة ساقيها ونحافة خصرها وارتفاع صدرها. . قالت ساخرة، تبرز عن عمد لهجة اختها الإنكليزية ذات اللكنة الثقيلة:

ـ عزيزتي ساشا. . لقد حققت ما تريدين من طموح. . لقد جعلت «پاپا» يتجشم عناء تدبير زواج بينك وبين رجل يوناني. . بعد مفاوضات جرت خلف الستار بين العائلتين المحترمتين وبعد لقاءات عديدة جرت بينك وبين العريس الموعود. ولا أنسى أنني انزعجت من وجودي كرقيب عليكما. أعتقد الآن أن العريس الموعود يهنىء نفسه لأنه أصبح على قاب قوسين أو أدنى من ملايين عائلة كورديس. فلماذا لا يتقطر لسانك عسلاً، ولماذا لا تغلفين مخالبك الحادة بالقطيفة؟

هبّت ساشا السوداء الشعر والعينين واقفة:

ـ تظهرين الأمر خسيساً. . . ! لم يكن إطلاقاً كما تصورينه. . أنت تعرفين أننا انجذبنا الى بعضنا بعضاً منذ النظرة الأولى.

ـ وهذه مكافأة إضافية له. . لأنه من المؤكد كان سيتزوجك ولو كنت مقوسة الساقين ناتئة الاسنان. بل حتى لو كنت تنظرين إليه من خلال نظارة سميكة.

وصل طبع ساشا البركاني، الى ذروة الانفجار. . . فحدقت فيها من علو قامتها المديدة. . فاعترفت اليكس للمرة المليون بالتشابه القائم بين شقيقتها الصغرى وبين والدهما اليوناني. فكلاهما أسمر، متفجر الطبيعة، طافحاً بالولاء المتشدد

لمعتقداته، وكلاهما يتأرجح بسرعة مع العاطفة، لكنهما رغم ذلك يمتلكان نزعة واقعية مادية ونوع من التصميم كان العامل الاساسي وراء وصول نيقولاس كورديس الى أن يصبح أغنى الصناعيين في أميركا، وأميركا بلد ليس كريماً مع المفلسين والمعدمين من المهاجرين.

ـ كيف تلمحين الى أن ما جذب ڤيتار هو ثروة «پاپا». أعرف أنه يحبني كما أحبه بقوة واخلاص. . ونحن نعيش بانتظار ذلك اليوم الذي سنتزوج فيه. . أما أنت فالشقيقة العديمة القلب، الخالية من الشفقة الأنانية. . . التي تبقينا متفرقين!

هزت اليكسندرا كتفيها بغير اكتراث:

ـ كلام هراء.

وعادت الى النافذة، فضربت ساشا قدمها الصغيرة فوق السجاد صائحة:

ـ ليس بالهراء! تعلمين جيداً أن التقاليد في عائلة أبي تقتضي تزويج البنت الكبرى أولاً. . . وپاپا يصرّ على هذا التقليد. لذا، وهو السعيد بخطوبتي لڤيتار، لن يقبل أن نحدد موعد الزفاف حتى تُعلن خطوبتك. . . أوه. . إنه عطوف!

وضحكت بحدة، تفتح ذراعيها بطريقة مسرحية تنم عن اليأس على الطريقة الإغريقية.

ـ إنه يتوسل إلينا أن نصبر. . «انتظرا قليلاً يا ولديّ» «اسبارطة. . . بلد الابطال الغني بالرجال الجذابين. . فعاجلاً أم آجلاً ستجد اليكس لنفسها. . . »

صمتت. . لكنها تأخرت عن لجم لسانها، فنظرت الى

شقيقتها مذعورة من زلة لسانها وانتظرت بصمت، مستعدة لمواجهة هجوم شقيقتها الوشيك.

ـ إذن!

كان هسيس صوت اليكسندرا مخيفاً أكثر من الصراخ.

ـ فهمت الآن سبب إصرار «پاپا» على انضمامي إليك في هذا المكان..! فأنا أيضاً سأعرض للبيع في أسواق اسبارطة... سأعرض على أنني جائزة ثرية أمام كل أنوف النبلاء المفلسين في المدينة، الذين ينقصهم المال الذي يحافظون به على مستواهم اللائق من العيش، وعلى قصورهم الآيلة للسقوط!

صاحت ساشا باحتجاج:

ـ لا يا اليكس.. كل ما يريده لك پاپا السعادة، سعادة كالتي أشعر بها أنا مع ڤيتار أو سعادة كالتي شعر بها مع «ماما»..

ـ ماما... ليتها مازالت على قيد الحياة. فلو كانت بيننا لناصرت كرهي للعادات اليونانية البالية.

أحست ساشا بالارتياح لأن مسار العاصفة تغير واجتازها. فهمست:

ـ أنت دون شك تفتقدينها. كنتما متشابهتين، ولأنني أشبه أبي أفهم مشاعرك وأتعاطف معها. حين ماتت «ماما» كانت خسارتي كبيرة، إلا أن خسارتك كانت أكبر..

لوت رأسها فوق كتفها وقالت بجبن:

ـ أنت أميركية يا اليكس... لا يمكن لأحد أن يصدق أن

فيك نقطة دم يونانية. أنت كأمي تماماً، ورثت عنها شعرها الأصهب الأحمر وبشرتها البيضاء وطريقتها الأنيقة في الكلام ورشاقتها واقتصادها في تحركها، وفوق ذلك كله رجاحة عقلها المنطقي. أتذكرين أنها كانت ترفض أن تقرأ لنا القصص الخرافية حين كنا طفلتين، وتصر على قراءة مقالات مناسبة من الصحف؟ كانت تقول إنها تريدنا، حتى ونحن في المهد، أن نكون على علم كامل بشؤون البلاد، حتى نعرف كل شيء عن أميركا والحياة فيها. أعتقد أنها كانت تخشى أن ننجرف وراء الرباط العائلي اليوناني الضيق، الذي كان يحيط بنا.. كانت قراءتها تجعلني أنام.. أما أنت يا اليكس فكنت تتشربين كل كلمة، أذكر مناقشاتكما وحواراتكما اليومية... وكانت «ماما»، سعيدة بما اخترت من مهنة أما أبوك فحار فيه، وما أشد ما كان عليه سرورها وهي ترى في العائلة طبيبة.

نظرت اليكس الى أختها وقررت أن تكون لطيفة فابتسمت:

ـ كاذبة.. أنت وپاپا لم تكونا حائرين فقط، بل مذعورين. قولي الحقيقة! ألم تريا أنني اخترت مهنة لا تليق بأنثى؟

أبعدت ساشا نظرها:

ـ حسناً.. قد تليق هذه المهنة بأميركية لا بيونانية.

عاد اللمعان التحذيري الى عيني اليكسندرا:

ـ بالضبط! وأريدكما أن تتذكرا أنني قبل كل شيء وأهم من أي شيء أميركية. قد تفضلين أن تكوني يونانية لكن لا تضغطي عليّ لأصبح مثلك... والآن هل تتفضلين عليّ بمنة فتحرري هذه الرسالة الى الپاپا.. وأرجوك، قولي له بكلمات صريحة

مباشرة بسيطة حتى يقتنع لآخر مرة أنني، وتحت أي ظرف من الظروف، لن أنظر بامتنان الى زوج يوناني.. أو الى أي زوج على الاطلاق. فالزواج بالنسبة لي ممنوع.. فلا مكان لرجل في مستقبل اخترته لنفسي.

صاحت ساشا وكأنها تولول:

ـ لكن اليكس... هذا يعني أنني وڤيتار لن نتزوج!

ـ لا يعني هذا شيئاً. لو أن السيد بروماليس رجل بكل ما في الكلمة من معنى لتزوجك بدون «الدوطة» التي وعده بها پاپا.. في الواقع أنا أقدم لك معروفاً بجعل هذا الرجل موضع الاختبار.. ردة فعله ستساعدك على معرفته.

حين صمتت ساشا عابسة، عادت اليكس الى النافذة، لتتأمل المنظر في الخارج.. كان الشاطىء الممتد على طول الساحل المواجه لجزيرة «كثيرا»، يحتوي على عدة أماكن مميزة بجمالها منها الڤيلات المنتشرة حولها.. والڤيلا التي استضيفوا فيها حالياً هي أكثر الڤيلات سحراً ورونقاً. وهذه الڤيلات جميعها كبيرة وقد تساءلت مراراً: لماذا لا يهتم اليونانيون بالمساحات الواسعة علماً بأن ساحلهم كبير وممتد؟ ولماذا همهم فقط التفاخر على بعضهم بعضاً وذلك بالعرض أمام القاصي والداني زخارف نجاحهم..

تقلص أنفها المستقيم نفوراً.. لقد وصلت مع أبيها وأختها الى اسبارطة منذ بضع ساعات فقط.. ولم تتح لها الفرصة بعد لتأمل الڤيلا التي سيقيمون فيها خلال زيارتهم.. لكن حين وصولهم، وخلال ترجلهم من السيارة التي أقلتهم من المطار،

سمعت والدها يتمتم بالاعجاب وهو يخطو أمام الڤيلا الى ساحة مرصوفة واسعة، وجودها يدل بحسب رأيه على عراقة وثراء مالكها الذي لا شك في أن أسلافه كانوا نبلاء أثرياء.

أشاحت بصرها عن المنظر لتسأل:

ـ من هو مضيفنا على أية حال.. لا أظنه كان موجوداً حين وصلنا؟

سارعت ساشا تقول، إذ يبدو أن هذا ما كانت تتوق لتخوض فيه:

ـ إنه النبيل الكونت تيغاروس بيرتاكس.. ابن خال ڤيتار. فكما تعلمين والدة ڤيتار ترملت عن عمر شاب.. والد الكونت، وهو شقيقها الأكبر، وضعهما تحت جناحيه. وحين مات وضع الكونت الحالي، مسؤوليتهما على عاتقه.. وهو الآن رأس العائلة، وبما أن منزل ڤيتار صغير لا يتسع لاستقبالنا فيه فقد أصرّ الكونت على أن يستضيفنا عنده.

ـ وكأننا في عالم الاقطاعيين! كنت أفضل أن نسكن مع الجدة تينا كورديس، إذ من السخف أن نفرض أنفسنا على غريب بينما جدتنا تقيم على مقربة من هذا المكان. ألا توافقينني الرأي؟

تمتمت ساشا، لأنها لم تعد تطيق نظرة اختها الممعنة:

ـ نحن أنا وپاپا وجدنا أن منزل جدتي لن يفي بالمراد. فمن المتوقع أن نرد الدعوة الموجهة إلينا من قبل عائلة ڤيتار.. وفي ظروفنا الحالية لن يكون غريباً أن ندعوهم الى فندق. بينما لو أقمنا مع الجدة تينا لاضطررنا لاستقبالهم في منزل العائلة.

ـ هذا طبيعي، وهو الحل الأمثل!

ـ لكن تينا طاعنة في السن ولا يجب ازعاجها.

ـ كلام هراء.. إنها تحب الضيوف، كما تعرفان جيداً.

ـ بيتها صغير وهو بعيد قليلاً..

ثارت روح اليكس الصادقة، ضد هذه المراوغة الكاذبة:

ـ أيتها المتكبرة اللعينة..! ما تعنينه حقاً، أن منزل الجدة ليس فخماً بما فيه الكفاية.. ما ستطهوه من طعام بكل فخر لضيوفكم سيكون بسيطاً متواضعاً بالنسبة لاذواق علية القوم من أصدقائك. يا إلهي كم أخجل من الطريقة التي يفكر فيها والدي. كيف له ذلك وهو من افتخر دائما بعصاميته... إن تفكيره هذا يدل على أن الكبرياء سيطرت عليه حتى بات يفضل نسيان الأم التي ضحت بكل شيء في سبيل تربية ستة أبناء، اعتمدت في رعايتهم على ما ينتجه صياد بسيط!

قفزت ساشا كأنما تتحدى غضب اختها:

ـ أحب جدتي بمقدار ما تحبينها، وپاپا يحبها أكثر مما نحبها. لكنه واقعي ويرى أنها لا تليق بالمجتمع الذي ندور في فلكه. قد تقولين إننا متكبران لكنك أنت فعلاً المتكبرة لأنك لم تعرفي الفقر في حياتك.. فلماذا تدّعين النسب لمن عرف الفقر؟ تينا كورديس تعيش هانئة.. پاپا يهتم بإعالتها. لكنها ترفض أن تترك منزلها، علماً أنه عرض عليها مراراً شراء منزل أكبر في منطقة أرقى من قرية الصيادين تلك. إنها عنيدة! وبما أنها أصرت على التمسك بطريقة عيشها القديمة فلا يحق لها الاعتراض على تمسكنا بطريقة عيشنا. ولا تقلقي بشأن جرح

مشاعرها.. فلقد ذهب پاپا إليها اليوم ليشرح لها الموقف.

وارتدت على عقبيها نحو الباب المشترك بين غرفتيهما.. لكن صوت اليكس المشبع بالاتهام بلغ أذنيها قبل أن تخطو الى غرفتها:

ـ لا يكتفي المتكبر الحقيقي أبداً.. يا ساشا.. فهو يبقى شامخاً في علیائه وكلما ارتفع وعلا كلما وجد الناس صغاراً في الاسفل! فاحذري وأنت على قمتك الشامخة المتغطرسة، المعزولة عن دفء التواضع والانسانية، من الوقوع لأنك لن تجدي من ينقذك أو يلتقطك.

ـ لن تكوني أنت المنقذة بالطبع لأنك محنية الظهر من جراء ما تحملين من توافه على كتفيك.

راحت اليكس وحيدة مع أفكارها الحارة، تذرع الغرفة دون أن تنظر الى ما حولها من ديكور، كان ليبهج نفسها في حالة الصفاء الفكري.

لكن الاهانة التي وجهّت الى جدتها أثّرت بها عميقاً. فهي قبل أي شيء آخر مخلصة لعائلتها ولأصدقائها..

أحست بالاعياء والسقم والخجل من تصرفات ساشا ووالدها حتى رغبت في توضيب حقيبتها للرحيل. لكن العائلة اليونانية ستعتبر هذا التصرف إهانة كبرى.. لذلك، ورغم غضبها الشديد من شقيقتها، لا تستطيع أن تحطم سعادتها. فبعد أقل من ساعة ستتعشى العائلتان معاً في الڤيلا.. وما أن ينتهي هذا، حتى تستطيع ربما الاختفاء عن الانظار، مستغلة الفرصة لتزور الجدة أياماً تسافر بعدها بهدوء الى أميركا.

قررت أن تعلم والدها بقرارها فوراً. فهو دون شك قد عاد الآن من زيارة الجدة. لكنها لم تجده في غرفته، وهذا يعني أنه في مكان ما من الطابق الأرضي.

التقطت أذنها عدة أصوات، فاتجهت إليها كما يتجه كلب الصيد وراء رائحة الطريدة. كانت الأصوات تتناهى إليها من وراء باب خشبي سميك ترك مفتوحاً قليلاً فاستطاعت أن تميّز صوت ڤيتار يقول:

ـ الشقيقة الكبرى.. بغيضة.. كما وصفتها لي ساشا. فمع أنها تعلم أن والدها لن يسمح لنا بالزواج حتى تعلن خطوبتها، إلا أنها ترفض بكل صراحة أن تتخلى عن مستقبلها المهني في سبيل الزواج.

سأل صوت رجولي فيه هزء جعل أسنان اليكس تصر حنقاً:

ـ هكذا إذن؟ وما هو هذا المستقبل الذي تريده الآنسة؟

ـ تأمل أن تصبح طبيبة. وهدفها هذا يحتاج الى أربع سنوات أخرى، لأنها مازالت في الجامعة تتخصص.. هل تتصور؟ علينا أنا وساشا الانتظار أربع سنوات أخرى حتى يوافق هذا رغبة هذه الأخت المهووسة!

ـ أمر غير طبيعي.. يبدو لي أن هناك سبباً أبسط لتمسك هذه الأخت بالبقاء عزباء. أتكون صدمة مُنيت بها لأن أي رجل لم يتقدم طالباً يدها؟ أنا مثلاً سأتردد كثيراً قبل أن أطلب من طبيبة مشاركتي الفراش.. إذ لن يقترب من هذا النوع من النساء إلا قلة نادرة من الرجال. ألا تفضل أن تفتش عوضاً عن ذلك عن كتلة أنوثة غارقة بالحيوية راغبة؟

ـ تقصد امرأة كجانيت؟

وتعالت قهقهة، لكن الرد الباتر دل على أن ڤيتار تجاوز بتعليقه ذاك حده:

ـ بالطبع لا..! فليس لاسم جانيت مكان في حديثنا!

وقبل أن يعتذر ڤيتار، هربت اليكس وأذناها حمراوان، وألوان الخطر تكاد تقفز من وجنتيها، ثم لما وصلت الى غرفتها أسندت جسدها الى الباب، تقاوم غضباً جامحاً ينتفض منه كل عصب في جسدها.

وقالت تكلم نفسها بصوت خفيض أشبه بفحيح أفعى:

ـ حيوان! متعجرف! وحش متكبر!

وشدت قبضتا يديها متمنية الدفاع عن نفسها جسدياً ضد سخريته، غاضبة غضباً شديداً لأنها موضوع كلام منحرف لم يتساهل في أن يطبقه على فتاة من جنسه.. جانيت.. كائناً من تكون بامكانها التمتع به!

* * *

٢ ـ قيود النار

بعد نصف ساعة، بدت اليكس ظاهرياً ساكنة مستعدة للانضمام الى الضيوف الذين تجمعوا في الطابق الأرضي. دقّ والدها وساشا بابها وهما في طريقهما الى الأسفل، يحثانها على الإسراع، لكن كان لديها سبب خاص لتؤخر دخولها الى الجمع، فطلبت منهما تركها. وتريثت حتى وثقت من أن الضيوف جميعهم وصلوا. ثم تحركت نحو الباب، تحافظ على هدوء بارد، دون حاجة الى تأمل مظهرها في المرايا العديدة التي تمر بها في طريقها.

عندما وصلت الى غرفة الاستقبال الرئيسية، وقفت في الباب بانتظار أن يلاحظ أحد وصولها.

كانت الأحاديث تتدفق من ألسنة كثيرة، والعيون الفضولية ترمق ساشا وڤيتار الواقفين داخل الباب مباشرة وظهراهما إليها، يحيط بهما نيقولاس الذي تضيء وجهه ابتسامة الأب الفخور، ورجل أطول قامة، وأنحف جسداً، يرتدي سترة تلتصق بكتفين عريضتين، يظهر تحتها كمان فاتحا اللون يطوقان معصمين أسمرين بنيين. كان شامخ الرأس، واثقاً من نفسه.. فعرفت أنها تنظر الى صاحب الصوت المجهول.

صدرت شهقة دهشة، ثم ثانية فثالثة، قبل أن يختفي الحديث ليحل محله الصمت المطبق. التفتت الظهور الأربعة معاً لمعرفة سبب الصيحة، فإذا بأربعة أزواج من العيون تنصب على اليكس، المتكئة بكسل وعفوية على عضد الباب مرتدية سروالاً عتيقاً، مرفوعاً الى ما فوق الركبة كاشفاً عن جورب صوفي مخطط بألوان متعددة، ومنتعلة خفاً قذراً بالياً، ولابسة قميصاً برتقالياً زاهياً مكتوباً على صدره بأحرف سوداء ضخمة «أنا مجنونة»! أما شعرها فقد فرقته عند الوسط ومشطته من الخلف الى الأمام، ثم جعلته ضفيرتين على الجانبين مربوطتين غير مرتبتين تتدليان على كتفيها.. حدقت في الوجوه الدهشة بغير اهتمام، ثم مدت لسانها بين شفتين مليئتين بأحمر شفاه قرمزي اللون، ونفخت خديها، ثم راحت تنفخ علكة جعلتها بالوناً كاد يلتصق بوجهها.

صاحت ساشا زاجرة:

ـ اليكس.. كيف يمكنك فعل هذا؟

وحبست أنفاسها وكأن هذه الأنفاس متعلقة بالعلكة التي توشك على الانفجار.. وحين انفجر البالون التصقت العلكة على فم اليكس، فمسحته ولم تلبث أن مدّت هذه اليد الى الغريب المحدق فيها.

ـ أنت الكونت دون شك. كيف حالك؟ أنا اليكسندرا، شقيقة ساشا.

أصابتها خيبة الأمل حين ظهرت التسلية على فمه، قبل أن يضع قناعاً متحدياً على وجهه.. ولم يلبث أن انحنى بأدب فوق

يدها الدبقة ورد بانكليزية لا تشوبها شائبة:

ـ كيف حالك آنستي.. كلي سرور بمقابلتك.

حين تصاعد الارتباك الى حلقها، بلعت لعابها بقوة، تبحث يائسة عن كلمات تستطيع فيها اختراق هذا الصمت الكريه.. لكنها تلقت الصد من دماغ بدا مقفلاً، ولسان رفض الانزلاق.

كان الانتصار في الجولة الأولى دون شك للكونت، ولم ينقذها إلا غضب أبيها الذي تمتم: «عذراً سيدي» وأمسك بيد اليكس بقوة وسار بها بعيداً عن الانظار المصدومة التي كان يرمقها بها أفراد عائلة ڤيتار. لم تكد قدماها تلمسان الأرض ووالدها يجرها من المرفق نحو حجرة انتظار صغيرة ما أن دخلاها حتى رفس الباب بقدمه قبل أن يصرخ بها:

ـ أريد تفسيراً لهذا التصرف المعيب.. وحذار.. اليكس... أريد تفسيراً معقولاً ومقنعاً!

كان غاضباً غضباً شديداً شعرت اليكس معه بأنها على وشك الاغماء.. كان نيقولاس كورديس يحب ابنتيه، بلهفة يونانية خاصة بعد وفاة أمهما. ولم تكن اليكس قد قبلت طباعه القاسية التي أنجحته في عالم المال. كانا دائماً صريحين مع بعضهما بعضاً لذلك ورغم خوفها، قالت له بشجاعة:

ـ ما فعلته كان احتجاجاً على التكبّر! عندما قصَّت عليّ ساشا خطتك التي تقضي إبعاد جدتي تينا عن عائلة ڤيتار، أحسست بالقرف والغثيان، والخجل الشديد منكما!

عقد والدها ذراعيه، وقال متجهماً:

ـ لذا قررت مستعينة بطريقتك الحمقاء العنيدة، الانتقام...

دون أن تتريثي حتى نتناقش الوضع. لقد اتخذت من نفسك أضحوكة بارتدائك ثياب الصعاليك أمام أناس لهم ذوق رفيع في عالم الجمال والأناقة. لن تجدي في اليونان فتاة ترتدي مثل هذا المظهر الرث. هذا الذي قد لا يحرك حاجباً في الحرم الجامعي في أميركا، لكن النساء هنا لا يظهرن في سراويل مهما يكن السبب. لقد جلبت العار عليّ وعلى شقيقتك بمظهرك الرث هذا وبملابسك التي لا تنفع لخادمة. مع أنك في الثالثة والعشرين، وساشا في الثامنة عشر، إلا أنني مؤمن بأنها أنضج منك بمرتين أو أكثر.

احمرّ وجه اليكس، وأحست بجرح في مشاعرها، ليس من الكلمات التي تستحقها فقط بل من نبرة الصوت التي نطق بها هذه الكلمات. كان وجهه الوسيم مضرّجاً مكفهراً.. فسارعت الى منع دموعها من التساقط، قبل أن تعاود الهجوم:

ـ ليس من حقك التكبر على جدتي.. إنها تساوي مئة من بقايا النبلاء المهترئين الفاسدين!

ـ أوَ لا أعرف هذا الواقع؟ لو أمهلتني بعض الوقت لشرحت لك أن جدتك قلقت حتى المرض من اضطرارها لاستقبال عدد كبير من الغرباء الذين لا يجمعها بهم أي شيء. وكانت قد كتبت لي ونحن في أميركا، تبدي تخوفها، وتتوسل حتى أريحها من واجب ضيافة أقرباء ڤيتار الكثيرين. إنها عجوز وهي تعبة. هذه هي الأسباب التي جعلتني أتردد في تحميلها وزر هذا الواجب.

ذعرت، وفزعت.. ثم أسرعت تخفي وجهها في صدره، تهتز من البكاء.

ـ آسفة بابا لأني أسأت الحكم عليك.. كان يجب أن أقدّر شأنك.

ضمتها ذراعاه الرقيقتان حتى توقف انسياب الدموع. ثم أبعد وجهها الخجول عن صدره ونظر إليها بحزن وهز رأسه.

ـ ماذا أفعل بك اليكس..؟ أخشى أن يسبب لك لسانك المتسرع يوماً آلاماً وحزناً كبيرين. يجب أن تتعلمي كيف تتحكمين بطبعك يا ابنتي... وعليك أن تفكري ملياً قبل أن تتكلمي خاصة حين ستعتذرين من الكونت.

انتزعت نفسها من بين ذراعيه:

ـ أعتذر من الكونت؟ لن أعتذر أبداً!

ـ بل ستعتذرين، هذا إذا رغبت في متابعة دراستك التي يبدو أنك تتمنيها بشدة. قد تكون الجامعة التي تدرسين فيها كريمة مع الطلبة وقد تؤمن لهم الكتب والسكن الجامعي، وذلك لأن التعليم مجاني.. لكن ثمة حدود للمجانية هذه فدون مساعدة الأهل ستجدين الكثير من الصعوبات، وقد تجدين الاستمرار مستحيلاً إذا توقفت عن دعمك. إذن الخيار أمامك هو التالي: إما أن تعتذري من الكونت بسبب ما أظهرته من أخلاق سيئة أو تواجهين مستقبلاً كله عثرات وصعوبات مالية.

حدقت فيه، غير قادرة على أن تصدق أن صاحب هذا الصوت الصارم، والعينين القاسيتين، هو الأب الذي كان في الماضي يتساهل مع رغباتها... ما قاله صحيحاً فلن تتمكن من

متابعة دراستها دون المساعدة التي يقدمها لها. قد تلوح ببيرق الاستقلالية وتقول له احتفظ بمالك، لكن الصدق والاستقامة دفعتاها الى الاعتراف بأن من المستحيل أن تعيش دون مساعدته في مجتمع فيه التضخم المالي عنيف.

وكان ردها متمرداً.. لكن لهجتها أنبأته بأن الجدال انتهى:

ـ أنت ترغب في تلقيني درساً في التواضع، بابا..

ـ إنه تلقين لن يضرك أبداً. لكنني في الاساس أود أن يتلقى الكونت ما يحق له. يجب أن أذهب الآن.. وسأعتذر عن غيابك طبعاً، طالباً من الكونت أن يسمح لك بخمس دقائق من وقته بعد العشاء.. والآن، أقترح عليك الذهاب الى غرفتك، لتنظفي نفسك من هذه الفوضى، ولترتدي فستاناً مناسباً بك عندما تقابلين الكونت. يجب أن يكون الفستان آخر صيحة في عالم الازياء.. وأعتقد أن الرمادي قد يتمازج مع لون عينيك..

ـ هه.. مضحك جداً!

لكنه كان قد تركها وخرج، فأخذت تحدق فيما حولها بجنون وارتدّت على عقبيها وكأنها لولب وصاحت:

ـ أعتذر..! أعتذر من ذلك.. ذلك! أوه... يا للجحيم!

واندفعت تركض نحو غرفتها.

بعد التلوي مع آلامها وعذابها بسبب هزيمتها، اعترفت لنفسها بعد ساعة بتلك الهزيمة. نظفت وجهها، ووضعت مسحة خفيفة من الزينة، ثم سرّحت شعرها وأعادته كقبعة جميلة فوق رأسها.. ثم اختارت فستاناً رمادي اللون لا يزينه سوى ياقة بيضاء. وجلست قرب النافذة تنتظر.. حتى دقت خادمة الباب

تعلمها بأن الكونت ينتظرها في مكتبته.

ماإن دخلت حتى وقف الكونت ثم دعاها الى الجلوس وتريث قليلاً حتى استراحت، ثم عاد الى مقعده.

ـ قال لي والدك إنك ترغبين في الحديث معي آنستي!

لاحظت نظرة عميقة في عينيه السوداوين، والتواء ساخراً يرفع طرفي فمه. كان أنفه المستقيم كحد السكين وكأنه لأمير إغريقي. لكنها كرهت هذا التنازل العطوف، ولم تثق بالرياء المنافق خلف قسماته الشرقية السمراء التي ربما ورثها عن أسلافه.

ـ تبدين مختلفة.. لا أكاد أصدق أنك ذات الفتاة التي التقيتها هذا المساء، فأنت في الواقع فاتنة..

أحست بالانزعاج من اطرائه، لكنها أجابت:

ـ والدي يجدني مدينة لك باعتذار.

ابتلع كلامها الوقح ثم ابتسم:

ـ قد يظن والدك هذا.. لكنك على ما يبدو لا توافقينه رأيه!

احمرّ وجهها وهي تشعر بنبرته مشبعة بالتوبيخ، ثم قفزت واقفة:

ـ أنا آسفة إذا بدا كلامي فظاً.. سيدي.. أرجوك.. اقبل اعتذاري لما سببته من إحراج لك ولضيوفك.

وارتدت على عقبيها خارجة. لكن طلبه الهادىء الرقيق منعها:

ـ أرجوك لا تذهبي آنسة.. فأنا مثلك.. أعتبر الاعتذار غير

ضروري... على كل الأحوال هناك أمر آخر أود أن أبحثه معك فهلا أعطيتني بضع دقائق من وقتك؟

عادت الى مقعدها دهشة، لكنها جلست هذه المرة على حافته قلقة كعصفور دوري مرتاب من دوافع القطة المتسللة. قدم لها علبة سكائر فضية، ثم سحبها حين رفضت:

ـ النساء في بلادي لا يدخن عادة. لكنني أعرف أن الاميركيات يحببن السكائر.. وأعتقد أنك إحدى أولئك النسوة المتحررات، المؤمنات بوجهة النظر الحديثة القائلة إن المرأة حرة في اتباع هواها حتى ولو كانت هذه الحرية على حساب النساء الأقل حرية.

ـ لماذا تتلاعب بالكلمات سيدي؟ إذا ظننتني أنانية لأنني اخترت تجاهل أفكار أبي القديمة الطراز رافضة الزواج قبل شقيقتي الصغرى، فلماذا لا تلج مباشرة الى صلب الموضوع؟ لكن قبل أن تنطرق إليه، أحذرك أولاً بأنك ستهدر وقتك سدى، فلست أشعر بالذنب لأنني اخترت مهنتي. لو كنت محل ساشا لتزوجت، سواء أرضي والدي أم لم يرضَ. لكن العائق الذي منعهما كان تردد ڤيتار في مخالفة رغبات أبي. وهو ما تردد إلا رغبة منه في عدم اغضاب أبي وذلك لأنه خشي أن يحرمه من ثروة كورديس.

إذا كانت تظنه سيغضب، فقد خاب أملها. نظر إليها نظرة طويلة باردة، يمعن النظر في مظهرها، تتسلل عيناه من قمة شعرها الاصهب الى عينيها الخضراوين المثيرتين، فوجنتيها الحمراوين، فشفتيها الشهيتين اللتين طالت عندهما نظرته:

ـ أنت حجر العثرة بالنسبة لأختك... ساشا جميلة، فاتنة، فكيف تشكين في حب ڤيتار لها؟

ـ بل أشك في قدرة أي يوناني على الحب! أنتم شعب خال من الحرارة سيدي، أنتم عرق لا عاطفة فيه، لا يهمكم سوى التملك وحسد من هم أكثر منكم جاهاً.. أنتم مخادعون مستعدون لتحطيم القلوب دون رحمة.. وذلك حتى تصلوا الى مآربكم وحتى غناؤكم العاطفي ليس إغريقياً بل رومانياً، أما الغناء الفولكلوري فمعدوم عندكم، لأن الاسبارطيين لم يتعلموا قط معنى الحب وهم رجال حرب.

لم يظهر على وجهه أثر للغضب حين رد عليها محتجاً بكسل:

ـ هيا الآن آنستي... أنسيت إله الحب لدى الاغريق..

ـ لم أنسَ.. لكنه كان إلهاً جباراً بارد القلب، فاسقاً، متقلب العاطفة.

وقف أمامها لينظر إليها من علو:

ـ لقد كوّنت انطباعاً سيئاً عن بني جنسي في الفترة الوجيزة التي قضيتها في بلادي. وهذا لا يزيد عن...؟

قفزت واقفة، فمن الخير المجابهة وقوفاً على قدم المساواة.. أحست بالتوتر. فأجابت:

ـ بضع ساعات فقط.. لكنني عشت عمري كله مع تقاليدكم ومحرماتكم، وعانيت ممارسة طويلة مؤلمة حتى أصبحت مؤهلة لادعاء الخبرة في اختراق ادعاءاتكم.

ـ بعض الناس آنسة كورديس، يرون ما يرغبون في رؤيته

فقط، ويؤمنون في ما يودون تصديقه. والنساء يملن الى هذا بشكل خاص. ليس كل النساء إنما أولئك اللاتي يكافحن بشدة لكبت أنوثتهن، واللاتي يخجلن من هشاشتهن أمام الجنس الآخر. أو اللاتي لسن مؤهلات جسدياً أو نفسياً لتحمل الاعباء التي خلقت للرجال، فهن ينقلبن في النهاية ضد الجنس الذي حاولن أن يقلدنه. وللأسف، اعترف لي والدك أنه كان نادماً لأنه لم ينجب صبياً. فكان أن حاولت على غير قصد منذ طفولتك ملء ذاك الفراغ في حياته.. لكن رغم ذلك لم تكوني له الابن الذي يريده بل حرمته من الابنة التي لديه الابنة التي يستطيع الافتخار بها، الابنة التي قد يجعله جمالها مثار حسد لدى أقرانه لكن هذه الابنة، أصبحت إحراجاً لوالدها فهي فتاة سيئة الطباع، فرصها في الزواج تتقلص في كل مرة تمارس فيها لسانها السليط!

ارتدت الى الوراء ساخطة:

ـ كيف تجرؤ على هذا الكلام؟

رفعت بصرها إليه، برفعة وشموخ حتى بانت عيناها كخنجرين خطرين، مسلطين على وجهه.. وقالت متحدية:

ـ أستطيع الزواج من أي رجل أختار.. وأعني أي رجل يوناني! ليس في هذه المدينة المليئة بالمرتزقة رجل لا يستطيع والدي شراءه لي.. وما من شك أن والدي الآن يعرضني للبيع... أما ساشا فلا شك في أنها أشاعت خبراً مفاده أن والدي أحضرني الى اليونان ليتخذ لي زوجاً! واعتقد أن ساشا لا تكاد تترك لحظة دون رمي الاتهامات على رأسي.. والآن

أنت... لك ما تقول! أسألك سيدي... أتتخلى عن حريتك، أتزج نفسك في رباط زواج مع غريبة فقط استجابة لرغبة شخص آخر؟

اشتد غضبها بسبب الطريقة البطيئة المتعمدة التي راح يفكر فيها بسؤالها، وأحست بقلة الراحة من جراء التحدي المنبعث من عينيه السوداوين اللتين بدتا تخترقان حجب جسدها ونفسيتها بحثاً عن الحقيقة. ثم أجاب ببطء، مازال يتعمده:

ـ قد أفعل.. فهذا يعتمد على مدى احترامي للشخص المقصود.

اعتبرت رده توبيخاً لها، فشعرت بأن السخط والغضب اللذين مرّا بها في هذا اليوم، يحثانها ويدفعانها الى تصرّف طائش.

ـ حسن جداً يا سيد... سأمهلك حتى تثبت صدق كلامك! تقول إنك مهتم لسعادة فيتار وساشا متهماً إياي بالأنانية لأنني أرفض أن أكون الضحية، مدعياً بأنك ما كنت لتقف في طريقهما لو كنت في مكاني... وأنا أعتقد أنك منافق، قبيح كذاب، ولهذه الاسباب لا أجد خوفاً في أن أضعك قيد الاختبار... أعطيك وعداً قاطعاً صادقاً.. أنني سأتزوج بأسرع وقت ممكن يقتضيه أعجل عرس.

استطاعت للمرة الأولى أن تذهله. فارتفع حاجباه وغدت تعابير وجهه مزيجاً من الحيرة والرضى.. لكنها ردّت نظرتها بأخرى أحدّ منها، متباهية بانتصارها قبل أن تنطق بشروط استسلامها:

ـ ثمة شرط يا سيدي..! وهو أن توافق أنت على أن تكون العريس!

* * *

٣ ـ امرأة النمر

خيط فستان عرسها، كما قيل لها، يدوياً منذ ما يزيد عن قرن وذلك على يد راهبات من دير شهير. كان الاكليل الذي سيوضع لتثبيت الخمار العاجي اللون من الذهب الخالص، المشغول يدوياً بشكل نبات متعرش مجدول.

جربت اليكس ارتداءه بتزق. ثم نظرت نظرة سريعة الى صورتها في المرآة. تمتمت بعدها: إنه يظهرني كنيرون الحقير! هزت رأسها بحدة جعلت أطراف الاكليل تغرز في جبينها وصاحت لصورتها في المرآة:

ـ كيف سمحت لنفسك بالوقوع في مثل هذا الفخ أيتها الحمقاء! لا بد أن تحديك قد لاح له من السماء كالمن الذي نزل على بني اسرائيل.. فما الذي دفعك لقبول خداعه؟

عندما سمعت وطء أقدام تدنو من غرفتها، انتزعت الاكليل ورمته على الفراش. كانت تحدق من النافذة حين دخلت ساشا.

ـ تحدثت مع تيغر الذي يود رؤيتك في أسرع وقت ممكن.. وقد قلت له بالطبع إنك ستأتين إليه حالاً.

لم تشح اليكس بصرها عن النافذة، بل ردت ساخرة:

ـ وهل قلت هذا؟ عجباً.. لماذا ظننتني قد أترك كل شيء

من يدي وأهرع لألبي طلب الكونت؟

هزت ساشا كتفيها حانقة:

ـ لأنه الكونت كما أعتقد ولأن من حقه أن يكون له درجة خاصة.

ـ هذا رأيك أنت. أما أنا فأخالفه لأن طبيعة هذا الرجل فارغة كجيبه، وكلامه بلا معنى كلقبه... أما شرحت لك ولوالدي الطريقة المخادعة التي اعتمدها لأوافق على أن أكون زوجته. وإذا أصرّ على مطالبتي بالوفاء بوعدي، فسأجعل حياته جحيماً.. وقبل مرور بضعة أشهر سيكون جاثياً أمام أبواب الكنيسة طلباً للطلاق وسعياً وراء حريته!

سارعت ساشا بابتهاج الى السرير والتقطت الاكليل الذهبي الذي سيكون اكليل شوك لأليكس.. وابتسمت برضى:

ـ تستحقين هذا تماماً..! لقد زججت نفسك في هذا المأزق وأنا من الناس الذين لن يتعاطفوا معك.. لقد حذرك پاپا في مرات عديدة من لسانك الذي سيوقعك في ورطة لن تستطيع قدماك جرك منها. وها قد حدث لك ما تكهن!

احتجت اليكس بعنف:

ـ كنت أحاول اثبات نفاقه! وكيف لي أن أعتقد أنه سيجرني أمام أقاربه جميعاً، ليعلن بكلام مبالغ فيه أنني وعدته بأن أكون له زوجة! يا له من مخلوق وقح!

أغلق تفكيرها أبوابه على ذكرى الكابوس الذي مرّ بها مساء البارحة. لكنها تابعت:

ـ كان يعلم أنني لا أريد أن أتزوجه، ورغم ذلك لم يترك

لي فرصة لاتراجع عن وعدي الأحمق!

ابتسمت ساشا ابتسامة القطة الراضية:

ـ ولن يترك لك الفرصة.. في الواقع.. لا أظنه يرغب في الزواج أكثر منك.. لكنه يضع مصلحة ڤيتار نصب عينيه.. لقد وضع تيغر على عاتقه مسؤوليات لا يهملها أبداً. وهو يشعر لأنه على رأس عائلة بيرتاكس، بأن عليه حل مشاكل أفراد عائلته ولو كان على حساب نفسه. إن رجلاً كهذا لنِعْمَ الزوج يا اليكس.. وهو أفضل بكثير مما تستحقينه.. في الواقع!

ارتدت اليكس الى الوراء عن النافذة ترغي وتزبد غضباً:

ـ لكنني لا أريد زوجاً ثرياً كأوناسيس أو وسيماً كأغا خان أو فاضلاً كقديس! فما بالك بأن أكون زوجة لكونت وضيع، أعتقده حسب خطواته بكل حذر وعلم أن قصره ومركزه سيستفيدان جيداً من دعم شيكات پاپا!

سارعت ساشا ترد بحرارة:

ـ تيغر متفاخر جداً...

ثم وجدت نفسها تتحدث مع غرفة فارغة، ذلك أن اليكس تجاوزتها خارجة، تقصد رأساً الكونت الذي وجدته في مكتبته. فاقتحمت المكان، ثم لم تلبث أن راحت تبدي احتجاجها من غير مقدمات.

ـ اصغ إلي الآن.. يجب أن ننهي هذه المهزلة حالاً!

وقف على قدميه، يقلب قلماً بين أصابعه:

ـ مهزلة؟ أهذه طريقة مناسبة لوصف زواجنا الوشيك يا حلوتي؟

ـ لا تنادني «حلوتي!» اسمي اليكس!

لكنه لم يُخدع.. بل ضحك عالياً:

ـ حلوتي.. يا جميلة.. أجل هذا اسم يليق بك أكثر من اسم اليكس.

حين تقدم منها ارتدت مذعورة. لكنها لم تكن سريعة بما فيه الكفاية لمنع يده المصممة على أن تطبق على كتفها في سبيل الامساك بها بحزم. فما كان منها إلا أن اضطرت الى تحمل لمسة يده الأخرى وهو يعقد خصلة شعر حول أصبعه.

ـ أتسمحين؟

وقبل أن تعرف ما يقصد، أمسك مقصاً عن طاولته، وقصّ طرف الخصلة الملتف فوقع على راحة يده.. ثم ترك كتفها لينظر الى الدائرة الحمراء الذهبية الملقاة وكأنها وصمة نار في راحته. ثم أخرج من جيبه علبة جلدية صغيرة أعطاها لها وقال آمراً:

ـ افتحيها.. أرجوك.

ما إن لمستها حتى انفتحت العلبة. فإذا هي تكشف عن قلادتين تستقران جنباً الى جنب على وسادة مخملية صغيرة بيضاء اللون بدتا فريدتين بشكل لا يصدق حتى عجزت عن كبح شهقة اعجاب. كانت كل قلادة ذهبية منهما صورة للنمر الذي هو رمز عائلة بيرتاكس التي يسمى الابن الأكبر فيها دائماً باسم تيغاروس أي النمر. كان هذا النمر في القلادة مكشراً عن أنيابه، معكوف الذنب، ذهبي العينين اللتين تلمعان كالماس بنظرة قاسية عابسة تشبه نظرة الرجل المنتظر ردها... في وسط كل

تمر، صورة جانبية من زجاج يمسك بها أربعة مخالب، أحدها لرجل ذي تقاسيم اغريقية كلاسيكية، والأخرى، لوجه فتاة ذات تقاسيم أقل حدة، فوق رأسها أكليل ذهبي، على كل عروس في عائلة بيرتاكس أن تضعه يوم زفافها.

رفع تيغر بصمت القلادة التي تحمل وجه الفتاة من الوسادة المخملية البيضاء وضغط على زر خفي فيها فانفتحت كاشفة بذلك عن مخبأ وضع فيه خصلة شعر اليكس... ثم أقفلها ووضعها في جيبه قائلاً:

ـ الأخرى ستكون ضمن ممتلكاتك.. وقد أخذت هذه الخصلة مسبقاً قبل أن يطلبوا هم ذلك. أما هذه فهدية الخطوبة. فقد تبادل العشاق في عائلة بيرتاكس منذ قرون هذه القلادات التي تحتوي إما على صورهم أو على تذكار شخصي. أما الخاتم فسأزودك به لاحقاً.. إن تقاليد عائلتي تقتضي أن يقدّم العريس هذه القلادات على أنها رمز لرباط أقوى من مراسم الزواج. فلك أن تقولي إنك منذ هذه اللحظة عروسي.. زواجنا لن يتم إلا بعد مراسم الزواج الكنسية، لكنك الآن بالنسبة لي الكونتيسة اليكسندرا بيرتاكس.. وأرجو أن نتشارك حياة كلها وفاق وسعادة يا حلوتي!

جعلتها كلمة التعجب هذه، تهب من ذهولها، فابتعدت عنه بحدة، متخذة ما يزيد عن المتر فاصلاً بينهما.

ـ أنا لست حلوتك! سيدي.. ولم أصبح بعد! وأعدك أنك إن أصررت على إلزامي بالوفاء بوعدي فستندم على هذا كل يوم، كل ساعة، وكل لحظة قد نقضيها معاً. فأنا لست ساذجة

كأختي الصغرى التي تؤمن بأن خطيبها مفتون ومأسور بسحرها. أما أنا فليس لدي هذا الوهم، لأنني أعرف تماماً الدافع وراء لهفتك ولهفة فيتار على الزواج منا، وهو الوضع الصحي لمحفظة أبي. إذا كنت ماتزال مستعداً للمعاناة، فلا مانع عندي.. لكن، سجّل هذا، سيدي: لن أعاملك كزوج أبداً، ولن يحصل أي تبادل للرقة بيننا، ولن تحصل أيضاً على ليال مشبوبة العاطفة. وسأقبل بك «صاحباً» ظاهرياً فقط وبما أنني أعرف تعلقك بعادات بلادك القديمة، فلن أشير الى واجباتك.

ابيضّ وجهه شحوباً.. فاختبرت رعشة الانتصار! عظيم! أخيراً تمكنت من اختراق برودة أعصابه التي لا تطاق. أشعل النجاح بهجتها فتبنت تصرفاً أكثر ثقة بالنفس:

ـ لقد دهشت، حين درست تاريخكم، الذي أشار الى أن نساءكم كن متحررات، عاطفياً على الأقل، يشاركن الرجل الاسبارطي القتال، لكنهن يفعلن ما يشأن. وقد قرأت أن معظمهن كن يستفدن من تحررهن هذا... إذ كان لكل امرأة، إضافة الى زوجها المتساهل، عشيق، «صاحب» معترف به. وهي تختاره بعد سنة من الزواج بموافقة زوجها، أما الشرط الوحيد فأن يكون من طبقتها الاجتماعية. وأنا لن أفرض عليك واجبات مرهقة سيدي.. بل أتوقع منك السهر على راحتي دائماً، كحمل مشترياتي حين أخرج الى السوق، ومساعدتي في الصعود والنزول من سيارتي، ومرافقتي الى الحفلات العامة واصطحابي لمشاهدة ما أبدي رغبة في مشاهدته، لكنني سأتغاضى عن السعادة في تقبيلك يدي كلما التقينا.

حملتها نشوة النصر، والإحساس بالسلطة، فانتظرت منفرجة الساقين، بتحد أن يبدأ بمناظرة. فإذا كان مصمماً على التمتع بمحفظة والدها فعليه أن يتحمل لسانها السليط.

ترقبت وأنفاسها محبوسة ونظراتها مستقرة على عينيه الباردتين الذهبيتين رد فعله. لكن الصمت طال والغرفة اشتدت برودتها حتى ارتجفت قليلاً، متذكرة حب الاسبارطيين وولعهم بحيوانات الغابة.. كانت مدينة اسبارطة مزينة بالتماثيل الحجرية، لأسود مجنحة، ونمور متحفظة وفهود شرسة، تجدها تحت النوافذ، أو متمددة على أسفل السلالم، أو متسلقة المداخن أو قابعة على أوعية الزهور وأبواب الحدائق.. بعضها منحوت من الخشب، وبعضها الآخر من الحجر.. وتذكرت بشيء من الخوف كلمة قرأتها: «من المفهوم أن على الاسبارطي الاعجاب بالحيوانات القديمة، لأن رجال اسبارطة يصبحون كالحيوانات حين يستولي عليهم جنون الانتقام»!

ارتدت الى الوراء لتدير ظهرها للرجل الصامت، المميز غضباً، وشعرت بضرورة الفرار من الجو المتفجر الذي يطغي على جو الغرفة. فقد شعرت للمرة الأولى بأن روحها الجريئة الشابة، ترتجف خوفاً.. خوفاً جعل خطواتها سريعة، وقلبها عاصفاً، يكاد يخرج من بين أضلعها، وما جعله حبيساً في حنجرتها إلا الذعر.

ـ لحظة واحدة من فضلك! فنحن لمّا ننهِ نقاشنا.

كان الأمر حاداً، جازماً، ومع ذلك لا يحمل وعيداً. فتوقفت والتفتت إليه ببطء متسائلة، فسجلت عيناه شبه ابتسامة

لوت أطراف شفتيه. أحست بخيبة أمل.. كيف ظنته متوحشاً؟ فهذا النمر ليس سوى قط أليف...

كان هذا الافتراض، هو المسؤول عن الاحتقار الذي لاح واضحاً في كلماتها:

ـ إذا كنت تريد أن تقول إنك غيرت رأيك بشأن الزواج سيدي، فسأكون سعيدة بالاصغاء إليك.

رد عليها بدماثة خلق جعلتها تصرّ على أسنانها:

ـ بالعكس... فأنا أعتبر أننا نليق ببعضنا بشكل مثالي. انت كما قلت لك أصبحت ملكي! وأنا أود أن أتأكد من أنك تفهمين أن الوضع الذي تفوهت به شائن للغاية. أتدركين.. مثلاً.. أن «الصاحب» الذي تتكلمين عنه كان عادة خُنثى وهو انسان سيء الحظ، لا يملك حصته من الهرمونات الصحيحة، لذا وضع في المنزل مع النساء لا مع الرجال الذين لا يبدون تعاطفهم، ولا يحسون بأي صلة تربطهم به. كان النساء يتحملن هؤلاء المخلوقات التعسة شرط أن يبقى راغباً في خدمتهن وأن يعطيهن أذناً صاغية لمشاكلهن، وأن يكون مستعداً على الدوام لإراحة صداعهن بوضع منديل مليء بالعطر على جبينهن. لا أنكر أن الأزواج كانوا متساهلين وما ذلك إلا لأنهم ما كانوا يخشون أن يغوي هؤلاء نساءهم. كانت العلاقة بين امرأة ومرافقها نادرة جداً، فللصاحب حتى في أيامنا هذه دوره في غرفة الملابس لدى النساء الثريات في أنحاء العالم أجمع ففي فرنسا يدعونه «جيغولو» وفي إيطاليا «سيسيبيو» ولست أدري إذا

كان لهم اسم في بلادك... قولي لي صدقاً يا اليكس... أتنطبق هذه المواصفات عليّ؟

فتحت شفتيها لتطلق إهانة مناسبة لكن كل ما كان في رأسها تبخر حين التقت عيناه الحادتان المتفرستان بها، بعينيها المذعورتين. لم يكن قد حرك ساكناً.. ولا نطق بكلمة، ومع ذلك كانت تحس برجولته تتدفق من جسده، ومن عينيه الذهبيتين الشبيهتين بعيني القط، ومن مشيته الحيوانية الرشيقة. حين أطلق ما يشبه الضحكة اضطرت للكلام:

ـ لا..! يجب أن أعترف بأنك لست هكذا. لكن الامر لا يهمني. فرجولتك أو عدمها، لا تهمني... كل ما أريد معرفته، ما إذا كنت مستعداً مقابل الدوطة الضخمة التي سيقدمها أبي، أن تقبل بالشروط التي ذكرتها لك؟

ـ طبعاً.. سيكون من سعادتي أن أسعدك.. على الاقل في الوقت الحاضر.

ـ اسمعني! ارتباطنا سيدوم فقط حتى يحس پاپا بالأمان ويأذن لأختي بالزواج. لقد حذرتها من الزواج بابن عمتك، مستخدمة كل وسائل الاقناع التي أعرفها لأحول بينها وبين التورط الذي اعتبره أكبر غلطة سترتكبها في حياتها، لكنها لم تصغ إلي. لذلك عليها أن تجد الحل بنفسها حين تكتشف أنني محقة وأنها مخطئة!

ـ وكأنك تهتمين بإثبات نظريتك!

كانت الكياسة، من رجل تحتقر دوافعه، مزعجة، فأجابت:

ـ أنا أتبع ما تمليه عليّ بديهتي. لم يحدث أن اتخذت رأياً بشخص ما إلا وكان مصيباً.

تلاشت ابتسامته الرقيقة عن وجهه:

ـ أنت مخلوقة عنيدة.. لكنني لا أنوي اشباع شهيتك الى التهجم. فأنت مازلت طفلة، وعلى الانسان أن يكون صبوراً مع الاطفال لأنهم نبتة مرّة قد تنتج ثمراً حلواً.

ردت بفظاظة، وسوء خلق:

ـ اصبر ما شئت، لكن الثمرة الوحيدة التي ستقطفها ستكون حامضة!

خرجت من الغرفة مسرعة تتبعها ضحكته.. فتساءلت لماذا يمتلك هذا الرجل الذي تمقته، وتحتقره هذه القوة التي تجعلها تبحث عن الهدوء والبرود، والتي تثير عواطفها وتلهبها حتى تكاد تحس كلما التقت به بلهفة متوحشة لإيلامه. إنها تخشى الحقد الذي يثيره في نفسها.. وإذا بقيت هادئة باردة، فستتمكن من التعاطي معه.. أما إذا أعاقتها عاطفتها فستصبح معرضة لكل أذى.

* * *

فراشة المحبة

٤ ـ الصاحب

وضعت اليكس في اليوم التالي صبر الكونت تحت الاختبار. سعى إليها بعد الفطور فوجدها واقفة أمام النافذة تتأمل البحر تتمتم وهي واقفة هناك، عيناها تتابعان المركب الأبيض الذي يمخر عباب الماء حاملاً ثقله الذي قد يكون بضاعة أو ركاباً.

ـ صباح الخير اليكس.

أجفلها صوته، لكنه تابع:

ـ ذكرت ساشا، أنه ليس ما يشغلك اليوم، وبما أنني حرّ كذلك، قررت أن أصطحبك للقيام بجولة في المدينة، فأنت على ما أعتقد ككل الزائرين ترغبين في التعرف على معالمها.

التفتت إليه، وقد سرها تواضعه معها وقالت:

ـ احضر معطفي وحقيبتي. لن تخطئهما فهما على فراشي.

سار بهدوء الى الجدار واضعاً اصبعه فوق زر جرس.. وما هي إلا لحظات حتى قرعت خادمة شابة الباب قبل الدخول:

ـ طلبتني سيدي؟

ـ أجل شيلا... تريد الآنسة معطفها وحقيبتها من غرفة نومها.

ـ حاضر سيدي.

لكن اليكس أوقفتها:

ـ لا تزعجي نفسك شيلا.. فالسيد سيحضرها بنفسه.. أرجوك، عودي الى عملك.

ـ عفواً آنستي...

رن صوت اليكس نافذ الصبر:

ـ سمعت ما قلته لك!

ترددت الفتاة خائفة، مذهولة ثم جالت عيناها المتوسلتان نحو سيدها الواقف متعجرفاً.. لكن في لمح البصر زال عنه تعجرفه، قائلاً بصوت هادىء:

ـ اذهبي شيلا، سأحضر أنا أغراض الآنسة.

حين تبع الفتاة الى الخارج، عضت اليكس على شفتها بقوة.. يجب أن تحس بالنصر لأنها مارست سلطتها على الكونت ونجحت، لكنه نصر متقيح قذر، نصر تركها تمثّل الآن، الكونتيسة الكريهة. مع ذلك، لم يكن في استطاعتها الندم في مثل هذه المرحلة. فقد بدأ الاعداد للزفاف وما عاد أمامها سوى أقل من شهر لدفع الكونت إلى تغيير رأيه!

حين عاد تيغر، لم يشر أقل إشارة الى تصرفها الأرعن، بل ساعدها على ارتداء معطفها قبل أن يقول:

ـ ثمة ريح باردة اليوم. إذا كان لديك وشاح أقترح عليك وضعه على شعرك لئلا يتطاير ويتشعث.

أطبقت أصابعها على وشاح مربّع الشكل في جيب معطفها لكنها اختارت تجاهل نصيحته، فخرجت شامخة الرأس الى فناء المنزل، حيث كان هناك ثلاث سيارات.. اثنان منها من النوع «السبور» المكشوف، والأخرى كبيرة فخمة رسمية. وقد خاب أملها حين تجاوز السيارتين الساحرتين فاتحاً لها باب السيارة الرسمية، وهو يضحك ضحكة خافتة:

ـ لو كانت رفيقتي ساشا، لما ترددت في اختيار إحدى هاتين. لكنني أعلم أنك تفضلين ما هو عملي بدل الأشياء المبهرجة. وأنا أعتقدك موافقة على اختياري.

ردت ببرود:

ـ أنت على حق تماماً.. وأعلمك أنني لا أفضل فقط الأشياء الرسمية بل الرجال كذلك.

لكنها وجدت أن من الصعب اغضابه حين لا يرغب. وساق السيارة على الطريق المؤدية الى المدينة، يتجاوز أحياناً السيارات الصغيرة أو الشاحنات الكبيرة ويزج سيارته بين السيارات في فسحات ضيقة حتى حبست أنفاسها أكثر من مرة قبل أن يصبحا من جديد على الطريق المستقيم. لكنها مع ذلك كانت تفضل الموت على أن تدعه يظن أن انتقامه منها قد بلغ مرامه.

أخيراً وصلا الى المدينة، وحين ركن السيارة في موقف عام كانت مقطوعة الانفاس تقريباً... ساقاها تصطكان وهو يساعدها على الترجل، لكنها تجاهلته بهزة من كتفها وتركت

يده، ثم سارت مضطربة نحو واجهة شرقية بدت لها خارجة من كتاب شرقي خرافي.

كان الموزاييك الذهبي البرّاق على الطراز البيزنطي القديم فوق أبواب ونوافذ يحيط بها منحوتات الأبراج في الفلك، والقديسين وملائكة.. أما الرخام فكان مطعّماً خيالي الجمال، فيه تماثيل مرمرية ومراوح مطلية بالذهب، وأشجار نخيل، وزنابق، وعنباً، ورماناً، وعصافير. كانت الواجهة مذهلة.. فيها الكثير من كل شيء، حتى تكاد العين تشبع من هذا الجمال الغريب الخيالي.

وتمتم في أذنها:

ـ حسناً.. ما هو انطباعك عن هذا؟

كان للهجته رنة الافتخار، فليس هناك بالنسبة للاسبارطي مدينة تقارن بمدينته التي ما من فن نحت قد يشبه دقة فنها وما من رسوم قد تكون أكثر من رسومها. وما من كنوز فنية أثرية قد تصل الى نصف جمال المجتمع هنا...

ابتهجت اليكس كثيراً في إبداء رأيها:

ـ إنها تبدو وليدة أفكار سيد حرب شرقي مجنون.. هي ليست جميلة بشكل اجمالي بل أعتبرها ذات ذوق سقيم، فليس فيها إلا البهرجة وكأنها حجر لص سرق ما قيل له إنه نادر وثمين، لكن ما أن امتلكه، حتى أحس بأنه ليس لديه الذوق أو الفن لعرضه في أفضل حال.

ـ هيا الآن، أنت تحكمين بعين الانحياز. انظري هنا، واغمضي عينيك قليلاً أمام أشعة الشمس، ثم تأملي الطبقة

المرمرية المطعمة... لقد صقل المطر سطحها البراق، وكأن الجدران ممسوحة بالزيت..

هزت كتفيها:

ـ آسفة.. ماتزال قبيحة بنظري، ولا تنسَ أن اسبارطة لم تقدّم الكثير للفن الإغريقي، وذلك لأن أهلها كانوا رجال حرب فقط.

ـ سنعود غداً.. فالآثارات القديمة تشبه النساء.. يوماً جميلة كالحلم ويوماً عبوساً متجهمة.

حين أمسك ذراعها ليبعدها عن مصدر فخره، أحست بانزعاجه. فكان أن قررت السير على هذا المنوال حتى تستغله. ركضت وهي تشهق وراءه لتستطيع مجاراة خطواته:

ـ لماذا تتوقعون من الجميع أن يعظموا قيمكم. مثلاً، تقول إن اسبارطة قد تكون جميلة كالحلم، ومع ذلك فقد يكون الحلم لشخص آخر كابوساً. ترى بماذا تحلم مدينة الحرب والموت؟ بشمس من ذهب؟ بقمر من فضة؟ بشلالات من الماس؟ ببرك من الزمرد؟ بجبال من المعادن الثمينة؟ لا يجد جميع الناس لذة في تاريخ كله تقشف وحرب وموت.

توقف فجأة وهما فوق جسر نهر «يورتاس» وأمسك بها ليديرها نحوه. كان في عينيه الذهبيتين لمعان غريب، يحذرها وينبهها الى أن الوحش النائم قد أثير أكثر من اللازم!

وقال لها:

ـ قد يكون هناك بعض الحقيقة فيما تقولين يا دبّوري

الصغير.. كلما اصطحبتك مدة أطول، كلما وجدت أن حكمي عليك خاطىء.

ابتسمت باعجاب لاختياره ألفاظه:

ـ دبوري الصغير! لكن الدبور قد يكون خطيراً... إنه يعقص، لكنه نادراً ما يكون ساماً، ومع ذلك فقد يسبب الكثير من الألم والانزعاج، حتى لمخلوق يكبره بالآف المرات.

لم تتوقع منه أن يمسكها بذقنها لذلك حين فعل عضت لسانها، فتألمت ألماً شديداً حتى كادت تصرخ... لكنه أردف ببرود:

ـ حين رأيتك للمرة الأولى، رأيت جمالاً تحت قناع من الدهان وضعته على وجهك... ظننتك صغيرة، طفلة هاوية، محبوسة داخل جسد امرأة.. جسد ناضج، له حنايا مذهلة لا يمكن أن يخفيه ما ارتديته يومذاك.. أحسست بالشفقة على ما اعتبرته محاولة شجاعة لمهاجمة التسلط، محاولة للتنفيس عن روح استقلالية مكبوتة. يومذاك كان تصرفك محدد المعالم. مع ذلك أحسست بأنه دفاع ملؤه البكاء قد يتدفق لدى أي ضغط. لكنني أعلم الآن أنني على خطأ. أنت لست هشة عرضة للخطر أو طفلة أسيء فهمها، بل امرأة سيئة الأخلاق سليطة اللسان. في الواقع، تلك الكلمات التي كانت مطبوعة على قميصك تلك الليلة كان يجب أن تقول «أنا فاسقة»!

ليته أطاح برأسها الى النهر قبل أن يتكلم. لقد ذهلت، صدمت صدمة جعلت أذنيها تحمران ودفعت الدموع الى عينيها. لكن لماذا؟ لقد مضت عليها ساعات وهي تهاجمه، تلكمه،

تعضه، تهينه إهانة إثر إهانة، تصرخ في وجهه ساخرة، توبخه وتتمتع بعربدتها. فلماذا إذن، وقد نجحت في تكدير اتزانه، تحس وكأنها شراع محروم من الريح؟ وكأنها مركب خفيف متروك تحت رحمة الطبيعة؟

ثم تصاعد غضبها من جديد.. كم سيستجيب يا ترى هذا الكونت الى وقع الفقر، هذا التاجر الحقير عديم الضمير، الى ما قد تقوله أو تفعله؟

ـ حسناً يا سيدي.. ما دمت توصلت الى تقدير قيمتي بدقة.. هل أفهم أنك لن تطالبني بالالتزام بوعدي؟ وهل أفهم أن الزواج لن يتم؟

استند الى حاجز الجسر الضيق، ناظراً إليها بقلة اكتراث وسخرية.. ثم قال:

ـ سأتزوجك بكل تأكيد.. وأعدك أن يسير كل شيء كما خطّط له.

تناولا الغداء على ضفة النهر في مطعم صغير، له درج حجري طويل، يقود الى غرفة تشبه القبو جدرانها قديمة متشققة، أثاثها فخم، طاولاتها مفروشة بشراشف بيضاء لا لطخة فيها.

بدا أن تيغر معروف جداً لدى صاحب المطعم الذي استقبله بذراعين مفتوحتين، وتبادل معه الحديث المتدفق بلهجة لم تستطع اليكس فهمها. وطلب الكبد المطهو مع البصل مؤكداً أنها ستتمتع به، وإن لم يعجبها فسيزودها صاحب المطعم بالسمك النهري والبطاطا.

تناولا الطعام بصمت، فبدا تيغر مشغولاً بطعامه، لكنه كان يسرع الى تغيير كوب الشراب من أمامها أو الطبق حين يكون ذلك ضرورياً. ومع أن اليكس تمتعت بالطعام، إلا أن توترها منعها من ابداء رضاها... بعد قليل سألها:

ـ قال والدك، إنك كنت تزورين جدتك دائماً خلال السنوات الماضية. فإذا كان هذا صحيحاً فلماذا لم تقومي باستكشاف المدينة من قبل؟

ـ كنا نقيم مع جدتي دائماً في قرية الصيادين حيث عاشت طوال عمرها مع جدي الصياد... وأنا أحب الاقامة هناك.. مع أن پاپا وساشا كانا يقيمان في اسبارطة إلا أنني كنت أجد منزل جدتي أجمل بكثير.

ـ جدك كان صياد سمك، كما عرفت؟

ـ أجل.

ـ إنها مهنة شريفة، بنيت دائماً على أسرار لا يعرفها إلا العاملون فيها... وهي تورث من جيل الى جيل ضمن العائلة. إن التعاون الشديد بين العاملين في هذا المجال ضروري لنجاح تجارتهم، وهذا قد يؤمن ضمن العائلة الواحدة.. في الواقع، هناك قانون بحري منذ القرن الخامس عشر يقضي بألا يمارس مهنة الصيد إلا من كان أبوه أو جده صياداً.

ـ لن تفيدني سيدي في هذا الموضوع. فلقد درسته جيداً. أتعلم أن الصيادين الفرنسيين مثلاً كان لهم امتيازات كالنبلاء؟ فهم لا يدفعون الضرائب مثلاً، ولهم الحق بالعيش كأصحاب الاملاك.. من جهة أخرى لم يمتلك ارستقراطيو اسبارطة

الأراضي والاملاك حتى القرن السادس عشر، وخلال تلك المدة وضعوا قوانين لحماية طبقتهم من التلوث بالاختلاط مع الطبقات الأخرى وقد وضعت محرمات قاسية لمنع حدوث زواج بين النبلاء والعامة.. لكن رغم ذلك كان هناك بين العائلات من رغبوا في الزواج من بنات صيادي سمك.

ـ وهذا حق تماماً. وبما أنني عضو من تلك الطبقة أود أن أسجل تفاخري وعظيم الشرف لأن حفيدة صياد اختارتني زوجاً لها.

اختارتني!.. ردت اليكس اللوم في هذا الخطأ اللفظي على طبيعتها المتوترة المتهورة. لكن وجدت أن لا مجال لتنكر ما طلبته منه. وسارعت ترد:

ـ سيدي تذكر أن مدينتك مرهونة لأمجاد قديمة، يا سيد. فالمرء لا ينفق إلا ما اكتسب.. على كل الأحوال، كن شاكراً لأن والدي قد تحمل دفع ثمنك!

* * *

٥ ـ بين القضبان

السيدة بروماليس، والدة ڤيتار، مثال يوناني للأم المحبة المتعلقة بأولادها. ما من امرأة في العالم بنظرها قد تستحق شرف أن تكون زوجة ابنها. لكنها مستعدة لتحمل ساشا الطيبة، الأنثى الطيّعة التي تمتلك فوق كل هذا ميزة لا تعوّض... والداً ثرياً!

وكانت هذه السيدة من جهتها أيضاً لا تطيق اليكس التي كانت تراها فظّة، ثقيلة الظل، وقحة لا تظهر اهتماماً يذكر نحو تيغاروس زوجها الموعود، ولا بأفراد اسرته..

راحت السيدة تحدق بفم مشدود في كونتيسة المستقبل التي تتلاعب، بشوكتها في قطعة من لحم العجل حمرت بالزبدة.

سارعت المرأة تسأل:

ـ ألم يعجبك الطعام يا آنسة؟

ارتفعت يد اليكس باجفال، فالتقطت السيدة أنفاسها بعد أن علق بصرها بالنظرة الزمردية الصافية، وكانت مضطرة للاعتراف بأن هذه الفتاة غير عادية الجمال.

ـ ماذا؟

تسبب الرد الفظ بتغيير رأي السيدة فالفتاة صعبة المراس،

لذا تجد أن ابن شقيقها قد فقد عقله! سارع والد اليكس للاعتذار بلباقة:

- اعذري استغراق ابنتي في أفكارها الخاصة سيدتي. فتفكيرها مشغول دون شك بالملابس والزهور وأجراس العرس.

حين التفتت اليكس إليه تحاول الاحتجاج رماها بنظرة تهديد: تصرفي جيداً.. وإلا! وقبل أن يعود الى تلطيف الجو سألته السيدة:

- كانت زوجتك أميركية سيد كورديس.. إنه جنس ذو طبع مختلف عن طباعك تماماً. ويجب أن تشارك ابن أخي في سر نجاحك مع طباع حادة. ساشا لن تسبب لابني أية متاعب، أنا واثقة من هذا، أما شقيقتها، فعلى ما يبدو تملك روح أمها واستقلاليتها.

ثم رفعت نظرها الى ابن شقيقها وأردفت:

- ستضطر يا تيغر الى أن توقف أعمالك، لتدربها على أساليب الطاعة.

نظرت اليكس نظرة حادة الى السيدة، فجمدت أساريرها المبتهجة على الفور:

- أنا لست فقمة في يدك!

وقال تيغر يوبخ عمته:

- ولا أنا أهوى دور مدرب الحيوانات عمتي.. أنت كمعظم اليونانيين، تقارنون الفتيات الأجنبيات بغير حق مع بنات جنسكن، وأنتن مخطئات... وللأنكليز قول مأثور، أحب أن أذكره لك: «لا تحكم على الكتاب من غلافه» فقد يبدو لك

غلاف اليكس قاسياً لا يلين.. لكني أؤكد لك أنني أجد نفسي أز.لق به كلما قلبت صفحة أخرى فيه.

كان صوت القرف الذي بدر من اليكس واضحاً بشكل جعل وجه ساشا يتضرج وجعل عيني والدها تلمعان بقوة.

قالت اليكسندرا:

- الأوهام التي تضلل الرجال نابعة من ميلهم للإيمان بصحة ما يوافق رغباتهم!

التوت شفتا تيغر وهو يرى الارتباك التام على وجه عمته الأحمر. ثم قطبت وهي تحاول فهم مضامين القول. وصعق الجميع من قولها حتى والدها الذي يرى أن ابنته الوقحة قد رمت مجدداً بإهانة لضيفهم.. لكن تيغر ساعد على تهدئة الجو بكل لطف:

- جدال اليكس سليم.. لكن بما أنه يتعلق بمسألة تخصها وقعت في فخ إخفاء وجهة نظرها خلف كلمات طنانة. فإذا بسطنا معاني كلماتها لوجدناها تعني أن أفكار الرجال تسير على الوجه التالي: القط حيوان ذو أربعة قوائم. والسنجاب حيوان ذو أربعة قوائم. إذن.. السنجاب هو قط. بمعنى آخر، إنها تقول لي إن الاستنتاج الذي توصلت إليه قد يكون خاطئاً تماماً.

صاح والد اليكس:

- ولماذا لم تقل هذا منذ البداية؟

ونظر الى ساشا التي كانت تمسك يد فيتار بسعادة من تحت الطاولة وهو يفكر: ألا يمكن أن ينعم الله عليّ بابنتين لطيفتين

مطيعتين؟ ماذا فعلت لأستحق فتاة مشاكسة سليطة اللسان مثل اليكس؟

وقفت السيدة بروماليس تشير الى الفتاتين:

ـ هلاّ تناولنا القهوة في الصالة، تاركين الرجال بسلام حتى يحتسوا شرابهم ويدخنوا سكائرهم؟

كتفت اليكس ذراعيها على صدرها، وارتدّت قليلاً في كرسيها:

ـ سأبقى هنا، فأنا أحب السيكار وقد اعتدت على تدخينه أحياناً.

رعد صوت أبيها في الغرفة:

ـ اليكس!

ففتحت فمها تريد أن تناقشه في حقها بالبقاء، لكنها كانت على وشك البدء في الكلام، حين لاحظت من طرف عينها رأساً محنياً صاحبه تهتز كتفيه في محاولة منه لإخفاء ضحكته. فتحول غضبها عليه، فالازعاج الذي تسببه والدها بصرخته فيها لم يكن إلا وخزة دبوس إذا ما قورن بالغضب الذي أثاره الرجل المجبرة على الزواج منه. فشدت على قبضتيها، وأصابعها تتوق الى خدش هذا الوجه الاسمر، وصاحت:

ـ اصمت! لا تضحك عليّ!

أمسك تيغر بعجز بخاصرتيه وارتد على نفسه في قهقهة مفاجئة، فصاحت به تضرب السجاد بكعب حذاءها:

ـ أنت.. أنت.. مغرور وخنزير أناني! تباً لك! لا أدري لماذا أزعجت نفسي؟

وخرجت من الغرفة شامخة الرأس بكبرياء، لامعة عينيها احتقاراً.

لم يمضِ عليها في غرفتها سوى دقائق حين دخلت عليها ساشا يبدو القلق واضحاً على ملامحها وفي عينيها النجلاوين. فنظرت الى شقيقتها التي خلعت ثوب السهرة ورفسته غاضبة:

ـ اليكس.. ماذا تفعلين؟ أنت لن تذهبي الى النوم بعد؟ أرسلتني السيدة بروماليس لإحضارك. ثمة ما تود بحثه معك.

أخرجت اليكس تنورة من خزانتها، ثم طفقت تبحث عن قميص مناسب. وقالت ساخرة:

ـ لا أشك في أن لديها ما تود بحثه معي. لكنني لا أنوي الجلوس مكتوفة اليدين وهي تلقي عليّ محاضرة عن اخطائي، مشيرة الى أنواع التصرف المتوقعة من كونتيسة المستقبل. عودي إليها وقولي لتلك العجوز الشمطاء أن تذهب الى الجحيم.. فأنا خارجة!

كررت ساشا بكل غباء متجاهلة الإهانة الموجهة لحماتها:

ـ خارجة؟ لكن.. لا يمكنك هذا. ليس بدون مرافق... هذا غير ممكن بهذه البساطة. فستحس السيدة بالفضيحة.. أما تيغر...

ـ أوه.. بالله عليك! دعيني وشأني! أشعر وكأنني كلما أطلت المكوث في هذه البلاد كلما تملكني الشر! إنك كاليراقة التي لم تخرج من شرنقتها منذ سنوات، وحينما لمسها أحد عادت الى التقوقع ثانية! نحن في بلادنا، نخرج حيث نشاء وحيثما نريد، حيناً معاً، وحين آخر منفصلتين. لو سمعت ما

تقولينه الآن من أحدهم منذ اسبوع لغرقت في ضحك جنوني، وها أنت الآن تلمحين الى أننا يجب أن نتصرف تصرفات ترفضها المرأة الحرة منذ ما يزيد عن قرن. حسناً، ربما أنت راغبة في أن يُغسل دماغك لكنني لست مستعدة! سأخرج الآن وحدي. وإذا لم يعجب السيدة تصرفي فلتقنع ابن أخيها المتكبر بإعادة التفكير في الزواج مني وبإلغائه.

ثم هرعت الى خارج القصر تشعر بالحرية، فاستقلت إحدى السيارات الموضوعة تحت تصرفها وطارت بها نحو المدينة حتى ابتلعتها الأزقة، والممرات المسقوفة المتصلة بشوارع خلفية تفضي الى ساحة واسعة.. اندفعت بالسيارة دون أن تفكر كيف ستجد طريق العودة الى القصر، وتبعت الاتجاه الذي كان يشير إليه أنفها، فتجولت في باحات واسعة عتيقة الطراز، وفوق أزقة مرصوفة بحجارة مربعة سوداء ثم لم تلبث أن أبطأت سيرها حين أبصرت عن بعد الجسر الرئيسي الكبير الذي يمر فوق نهر بورتاس الذي يربط جناحي المدينة القديم والجديد، والذي أشار إليه تيغر بفخر.. تقدمت منه واجتازته الى الحي القديم، فوجدت نفسها في سوق صاخب رائع المنظر، ثم فقدت كل أثر للزمن وهي تتمتع بالصخب المتبادل بين رواد السوق. تأملت الحلي الذهبية، والميداليات، وأبدت اعجابها بالرفوف الخشبية المكوّمة فوقها أكوام من البصل، والخس، والتفاح، وجوز الهند، والبرتقال.

ما إن توقفت أمام واجهة قرنفل حتى أحاط بها باعة الزهور، ولم تستطع التخلص منهم إلا بعد أن اشترت باقة كبيرة

من الأزهار الفوّاحة الرائحة. أثناء سيرها احتك رباط خفّها بكعبها، فسارت تعرج حتى وصلت الى مقهى في الهواء الطلق، فتهاوت على كرسي ووضعت حملها الملّون الفواح على طاولة معدنية. وقالت للساقي:

ـ قهوة من فضلك.

كانت على وشك الانتهاء من شرب القهوة، حين التقطت من فوق حافة الفنجان منظر عينين جريئتين، تستقران على وجهها.. لكن هذا المعجب لم يسبب لها الارتباك. فقد كانت تعرف من خلال تجاربها السابقة، أن أمثاله يجمدون خوفاً حين يتلقون نظرة صارمة من الجهة الأخرى.

لكنه بسبب سكوتها حرّك كرسيه نحوها حتى لم يترك إلا بضعة سنتمترات بينهما. وارتسمت ابتسامة زائفة على وجهه:

ـ نهارك سعيد آنستي!

عندما انكشف أمامها صف من الاسنان البيضاء، أحست برغبة في ادخال قبضتها في فمه، لتحطم ما يظنه كما هو واضح أحد أثمن ما لديه. لكنها لوحت بيدها:

ـ اذهب من هنا.. لو سمحت!

فابتسم، وكأنه اكتشف خابية من الذهب:

ـ آه.. أميركية! أنا أتحدث لغتكم جيداً. وأحب الفتيات الاميركيات جداً.. لماذا لا تشاركيني شرابي.

نظرت إليه بحدة:

ـ لا.. شكراً لك.. لو سمحت، أود البقاء وحيدة لأتمتع بالمناظر.

لكن ابتسامته لم تتغير، فتنهدت اليكس، إنه لمن سوء الحظ أن يكون لبنات بلادها هذه السمعة السيئة، لذا شعرت بأن عليها أن تدافع عنهن وذلك بأن تشرح بطريقة حاسمة الفرق بين الحرية وفساد الاخلاق، لكنها لم تكن تنوي جر نفسها الى نقاش مع هذا المزعج المترهل.. لذلك عضت على شفتها، ونظرت إليه نظرة صخرية تمسخه الى مصاف ذبابة على جدار. لكنه أمام غضبها تقدم أكثر حتى لامس كرسيه كرسيها فهمس بأنفاس تعبق فيها رائحة الثوم.

ـ أتحبين الرقص؟ أعرف مكاناً قريباً...

ـ لماذا لا تذهب وتلقي نفسك في النهر؟

دست خفيها في قدميها، ثم وقفت استعداداً للرحيل فأدارت ظهرها الى الرجل الذي أثارها وجوده، لكن وبينما هي منحنية تلتقط الأزهار، أحست باصبعين تقرصانها.. وهذه حركة في الظروف العادية قد تجعلها تضحك، لكنها الآن أدت الى غضب أبعد بكثير عن سيطرتها. وقد زاد هذا الغضب من قوة ذراعها التي علت بقوة وهي تحمل الحقيبة التي حطت على رأسه. رمته الضربة عن الكرسي الى الرصيف. كان تعبير الاستغراب وعدم التصديق على وجهه مضحكاً.. مما اضطرها للضحك.

أما الأحداث التالية فكانت أشبه بفيلم هزلي.. فبينما كان العاشق الاسبارطي يتألم عند قدميها.. يصرخ من الألم المصطنع، برزت امرأة سمينة، من داخل المقهى تشهق وتزبد ملوحة بمكنسة خشبية في اتجاه اليكس. وتدفق زبائن المقهى

على أثرها، وما هي إلا ثوان حتى أحاط بها جمهرة من الناس المعادين الصاخبين وقد تعاطفوا جميعهم مع الرجل الملقى أرضاً.. كانت نظرة واحدة تكفي لتؤكد أنه ابن المرأة السمينة وغاص قلب اليكس.

سمعت فوق الصراخ المعادي الموجه إليها، صفيراً مرتفع. ثم تفرق الحشد، سامحين لشرطي كانت عيناه تلمعان كالثلج من تحت قبعته.. أشار الشرطي الى اليكس بالصمت وأصغى باهتمام لكل ما كانت تقوله له المرأة السمينة، ثم بدأ بكتابة ملاحظاته متجاهلاً احتجاجات اليكس.

فقدت هدوءها حين وضع يده على كتفها وبدأت بالصراخ:

ـ هذه المرأة مجنونة! لم أكن أنوي قتل ابنها.. كنت فقط أدافع عن نفسي.. لو حدث شيء كهذا في أميركا لطالبت بكل سهولة أن يسجن هذا الرجل بتهمة التهجم اللا أخلاقي. اسمع.. أستطيع إثبات ما فعله!

نسيت حشمة اليونانيين المعروفة ورفعت تنورتها لتبحث عن آثار قرصته التي آثارها على ما تعتقد ظاهرة على جنبها.. وتصاعدت شهقات الرعب من النساء وصيحات الاستحسان من الرجال، فاستعادت تعقلها وأحست بالخجل وكأنها ارتكبت جريمة بشعة ثم سرعان ما غطت مكان الكدمة. فقال لها الشرطي:

ـ ستأتين معي آنستي.. أنا أتهمك بالعنف وإهانة الاخلاق العامة.. لا تجادليني. أنتن الاجنبيات مزعجات، تغوين أبناءنا، وتقلقن بناتنا، وتزعجن آباءنا بطرقكن المشينة. لو كان

لي السلطة لمنعتكن جميعاً من دخول البلاد. . لكن سلطتي تشمل القدرة على سجنك.

كان الرجل الجهم الوجه الجالس وراء طاولة في مركز الشرطة، أحط من أن يكون بشرياً، فقد أصر على أن يكتب الأكاذيب التي قيلت عن اليكس. . ثم، دون أن يرفع رأسه. . لوّح بيده ليبعدوها عن نظره، فكان أن رافقها شرطي، اقتادها الى ممر مظلم ومنه الى درج، وبعد ذلك دفعها الى غرفة مظلمة، ليست بحجم خزانة في قصر تيغاروس.

كانت الزنزانة الباردة، التي لا راحة فيها، والفراش القاسي، والوسادة الملبدة، حقيقية. . فرمت نفسها فوق البنك الخشبي وأسندت رأسها جانباً فلامست جبهتها قضباناً فولاذية باردة وراحت تفكر ليس في والدها الذي سيغضب، أو في شقيقتها التي ستحس بالفضيحة، أو في صهر المستقبل، بل في الكونت البارد الاعصاب، فتمنت بيأس للمرة الأولى أن يكون الآن الى جانبها.

تدفقت الكلمات منها بغصة تقول لنفسها:

ـ أوه. . اليكس. . يا فتاة. . لقد فعلتها هذه المرة! وسيكون أمامك جحيم لتدفعيه!

* * *

٦ ـ سأكون لك

أعطيت عند الساعة الخامسة من الصباح التالي، وعاء فيه ماء وقطعة مربعة وسخة، أطلقوا عليها اسم منشفة إضافة الى قطعة صابون كريهة الرائحة. ارتجفت من القرف، ورمت الماء فوق وجهها، ومسحت عينيها اللتين لم تذوقا طعم النوم جيداً. بعد أن جففت وجهها بالمنشفة، مشطت شعرها بأصابع مرتجفة، متمنية استعادة مشطها من الحقيبة التي صادرها الشرطي. .

أنعشها غسل وجهها ويديها. . فجلست على حافة البنك الخشبي تحس بالجوع، وبالغثيان في الوقت نفسه. . . وكان هذا أفضل لها، فحين وصل الفطور نظرت الى القصعة المعدنية التي تحتوي على طعام بني اللون غير معروف لها، ودفعتها جانباً. . وجلست تراقب الشمس في تصاعدها من خلال النافذة الصغيرة المرتفعة لكنها لم تلبث أن اختفت عن ناظريها تاركة الزنزانة مرة أخرى أكثر ظلاماً وتجهماً. .

رفض الشرطي العابس الوجه الاصغاء الى توسلاتها حتى تتصل بوالدها. فبعد غياب ليلة كاملة لا بدّ أن الجميع قلق عليها.

لم يكن لديها فكرة عن الوقت، لكنها تلقت وجبة أخرى، رفضتها كذلك، قبل أن تسمع صليل مفاتيح، ووقع خطوات مستعجلة، وصوت مستنكر، غريب اللهجة لكنه مألوف وهو يصيح في وجه شخص سيء الحظ.

قفزت واقفة، وتقدمت الى الأمام، حتى يستطيع تيغر القادم، رؤية منظر جسد خائف متقوقع وراء القضبان.

ـ افتح الباب!

وانتظر بوحشية وهو يرى الحارس المرتعش اليدين يتعثر في اختيار مفتاحاً من بين هذه المفاتيح كلها. وعندما انفتح الباب، فتح تيغر ذراعيه واستقبلها.

كان اندفاعها الى ذراعيه بالنسبة الى اليكس، طبيعياً بل أكثر من طبيعي. فقد طارت من باب الزنزانة ورمت نفسها بين ذراعيه المفتوحتين، دافنة وجهها في كتفه، مرتجفة فاشتدت ذراعاه حولها بدائرة حامية. ومسحت شفتاه جبينها وهو يتمتم بجمل حنونة تبعث الاطمئنان. واساها حتى توقفت عن الارتجاف ثم اقتادها عبر الممر وهي ما تزال ملتصقة به، فارتقيا الدرج الى ضوء الشمس الساطع في مكتب مركز الشرطة الرئيسي.

سمعت لغطاً كثيراً وخطى متسارعة، ونقاشاً حاداً.. لكنها أبقت رأسها مدفوناً في كتف تيغر، تخجل من دموع الضعف التي بللت وجهها.

راح صوت فيه سلطة يحتج:

ـ سيدي.. كيف لنا أن نعرف؟ كانت الفتاة تتجول في

الشوارع وحيدة، في وقت متأخر.. وقد أحدثت شجاراً في مقهى عام... فاستدعينا.. ماذا تريدنا أن نظن؟ لم يكن لدينا بديل عن توقيفها!

لم يرفع تيغر صوته. نمر اسبارطة لا يزأر أبداً.. إنه وحش دون أنياب... لكنه قال لهم ببرود يسكتهم:

ـ يكفي! سأعود إليكم فيما بعد.

أحست حتى اليكس المنتقدة، بالغضب المكبوت في كلماته المختصرة الحادة، وأحست بالتعاطف مع الرجال الذين صمتوا بقلق، لا يقطعه إلا وقع أقدام حزينة، وسعال محرج.

حين وصلا الى القصر، أخذ زمام الأمر بيده.. ففي الردهة الرئيسية، كان ينتظرها والدها وساشا وڤيتار وأمه الذين أطلقوا وابلاً من الأسئلة، حتى لم يكادوا يتركون لها فرصة للرد:

ـ اليكس.. ماذا حدث بحق الله؟

ـ اليكس.. أين كنت؟

ـ هل لي أن أسأل أين قضيت ليلتك آنسة؟

ـ لماذا لم ترسلي رسالة، كادت ساشا تموت فزعاً عليك!

أقبلت خادمة استجابة الى جرس رنه تيغر:

ـ شيلا.. رافقي الآنسة الى غرفتها، ثم أعدّي لها حماماً ساخناً، وطعاماً خفيفاً، ودعيها تنام.

فاحتجت ساشا:

ـ لكن تيغر..! يجب أن نعرف...

ـ ليست شقيقتك بحالة تسمح لها بالاجابة عن أي سؤال.. قد ترضي فضولكم فيما بعد، لكن حتى ذلك الوقت أصرّ على

أن تترك بسلام لتسترد قوتها مما حدث لها. اذهبي الآن مع شيلا يا اليكس. إذا أحسست بأنك بخير انضمي إلينا على العشاء.

أحست للمرة الأولى بالراحة لتنفيذ ما تؤمر به.. كان رأسها يؤلمها.. وجفناها يرفضان البقاء مفتوحين. خطت بشوق الى الحمام الذي أعدته لها شيلا ثم لما انتهت من الاستحمام عادت الى غرفتها، ورائحتها تعبق بالعطر والصابون والبودرة. فغرقت في فراشها نائمة قبل أن تضع شيلا الغطاء فوقها.

بعد ساعات، تحركت.. فتحت عينيها، ثم استلقت متثائبة على ظهرها فسمعت صوتاً حبيباً الى نفسها يقول:

ـ آه.. أخيراً عدت إلينا يا طفلتي!

أدارت عينيها الناعستين نحو الجسد الجالس على كرسي قريب من السرير، وصاحت بجذل:

ـ جدتي تينا! ماذا تفعلين هنا؟

ـ لقد أحضرني هذا الصباح خطيبك الفاتن!

ـ خطيبي...؟ آه.. تعنين الكونت!

ـ طبعاً.. أليس هو من اخترته زوجاً؟

ـ حسناً.. صحيح.. لكن لست أفهم تينا.. لماذا أحضرك الى القصر؟

جدتها.. امرأة صغيرة الجسم، نحيفة ذات أسارير حلوة، وفم قد يظهر صارماً كما قد يظهر مبتسماً:

ـ حين قال لي إنك مفقودة طلبت منه نقلي الى قصره. لقد أحضرني في ساعات الفجر الأولى، وكان قد جاب المدينة بحثاً

عنك، ثم اتخذ بيتي ملاذاً أخيراً. لقد أظهر لي أسفه الشديد لأنه أزعجني ونقل إليّ الخبر المشؤوم، لكنني رفضت البقاء في بيتي قبل أن أعرف مصيرك.. فاصطحبني الى قصره... لقد اخترت زوجاً رائعاً يا طفلتي! رجلاً قلب المدينة رأساً على عقب بحثاً عنك.

انتفضت اليكس، وهي تتصور تيغر في حالة اضطراب شديد. إن ذلك لبعيد عنه، فأمثاله لا ينزعجون لأمر تافه كضياعها، فقالت:

ـ أظنك أسأت الحكم عليه تينا.. لا أظن الكونت يسمح لنفسه بالانزعاج.. إنه بارد هادىء في كل الأوقات..

ـ منذ متى تعرفين الكونت؟

ها قد حانت لها فرصة اكتساب حليف.. إنها تحب جدتها حباً عظيماً وتعرف أنها تبادلها الحب.. ربما يتمكنان بواسطة حكمتها من إيجاد مخرج لمأزقها... أجابت:

ـ منذ بضعة أيام فقط.. وقد حدثت الخطوبة نتيجة رهان سخيف. لكن الكونت أصرّ على تنفيذ الوعد.. لأنه يحتاج الى «الدوطة» التي سيقدمها له پاپا.

لم يبدُ الاضطراب على الجدة، بل هزت كتفيها وقالت:

ـ إذا كانت هذه هي القصة.. فأنت محظوظة. احمدي ربك لأن رهانك وقع على شاب وسيم كالكونت بيرتاكس، لا على شبه رجل عجوز بشع، منظره يبعث الاشمئزاز الى شابة مثلك.

وضحكت كأنها تتذكر نكتة خاصة:

ـ لقد أسأت الحكم عليك يا طفلتي.. يقال إنك تحملين أطباع أمك، لكن في هذا الامر أنت أشبه بأبيك.. فمن المستحيل اجبار أي منكما على قبول وضع لا يعجبه.. وها أنت تقولين إن الكونت لا يعجبك وتشكين في دوافعه غاضبة منه لاصراره على اتمام الزواج. فكري ملياً يا طفلتي وكوني صادقة مع نفسك كصدقك مع الآخرين... ألا تحمدين الله لأنك تمكنت رغم ادعائك الفارغ بعدم الرضى، من أسر الرجل الذي تريدين؟

ـ تينا..! إنك تنزلينني بتلميحك الى مستوى السخيفات مثيلات ساشا، اللواتي لا يتجاوز طموحهن إيجاد زوج! أنا عكسهن تماماً.. فالرجل الوحيد الذي أريده في حياتي هو الرجل الذي أستطيع تشريح جمجمته. نعم أنا لا أرفض صحبة الرجال، لكن في الوقت المناسب والمكان المناسب.. أما الزواج فليس جزءاً من مخططاتي. لذا تزعجني تلميحاتك هذه وتبعث الى نفسي تعاسة كبرى!

لم يظهر على الجدة التأثر وهي تقف:

ـ مسكينة اليكس... ليتني أستطيع توفير مرآة لنفسك! أشعر بالأسى على فتيات هذه الأيام، اللواتي يعشن في عالم يسعى جهده ليلاً نهار لتغيير طبيعة المرأة وليجردها من أنوثتها، وذلك باقناعها بأن الزواج قيد وهذا العالم لا يكتفي فقط بما ذكرت بل يجعل النساء يرفضن أقدس شيء في الحياة وهو حمل الاطفال. عليك يا حبيبتي أن تحاربي هذه الدعايات

المغرضة. وإلا، ستتضورين جوعاً لا من نقصان الخبز بل من نقصان الحب.

تركتها جدتها حتى ترتدي ثيابها، فكان أول ما فكرت فيه أن الجدة قد أصبحت عجوزاً تثير الشفقة لا تفهم الحياة العصرية. ارتدت فستان سهرة أسود دون أكمام، مفتوحاً عند الظهر، لا يعلق على كتفيها منه إلا رباطان رفيعان. وكان هذا الثوب يتطلب ممن ارتدته الهدوء ورباطة الجأش لأنه سيخطف الأنظار ويجلب شهقات الأعجاب من كل صوب وحدب. وما ارتدته إلا لأنها شعرت بأنها بحاجة الليلة الى الدعم المعنوي الذي قد يعطيها إياه الفستان... فهي إذا أرادت اكمال الطريق، ستحتاج الى كل ما لديها من أسلحة.

كانت تضع اللمسات الأخيرة على وجهها حين دخلت ساشا.. التي نظرت الى صورتها في المرآة وشهقت:

ـ أوه.. اليكس.. لست في مزاج التحدي مرة أخرى!

استدارت بهدوء إليها:

ـ عمّ تتحدثين؟

ردت مقطبة:

ـ إن شيئاً ما يستحوذ على تفكيرك كلما ارتديت هذا الفستان. أنت تتمتعين جداً بصدم الناس.. أرجوك اليكس.. حاولي التصرف بلباقة الليلة. پاپا غاضب جداً منك. والسيدة برماليس وڤيتار مصدومان مرتبكان من تصرفاتك. أمّا تيغر...

استدارت اليكس نحو شقيقتها متحدية:

ـ أجل.. اخبريني عن تيغر. أصُدِم هو الآخر؟ أشعر

بالغضب والخجل؟ أعترف أنه كان خجلاً حين أخرجني من السجن هذا الصباح. لكنه رجل مهذب جداً لا يُظهر عادة سخطه أمام سيدة تعاني من الضيق. قولي لي ما رأيه ساشا؟ هل نجحت في خداعه بشأن ما حدث بالامس؟ هل استطاعت عمته إقناعه بأنني لا أصلح زوجة لكبير عائلة بيرتاكس؟ هيا.. اخبريني، ما هي الكلمات القاسية التي قيلت عني أثناء غيابي؟

وقفت ساشا في عجز كامل، ثم راحت شفتها ترتجف، وتقوقعت على نفسها ككرة من الهمّ، رامية نفسها فوق سرير اليكس تشهق بالبكاء.. ولم تكن تمثل هذه المرة.. بل كانت دموعها دموع اليأس، فأمسكتها اليكس وهزتها:

ـ ساشا.. ما الامر؟ أكنت قلقة عليّ؟ أنا آسفة إن أقلقتك. ما قصدت..

ارتفع رأس ساشا، والكراهية بادية على وجهها.

ـ أنت آسفة؟ لست آسفة مثلي.. إنني آسفة لأن سعادتي بين يدي فتاة أنانية قادرة على تحطيم حياتي... آسفة لأنك لست شقيقة تهمها مصلحة شقيقتها. أنت أنانية، عنيدة، لا تهتمين إلا بتنفيذ أهوائك حتى وإن حطمت حياتي!

جلست اليكس قربها على السرير.. لم تكن ساشا تشكو هذه المرة مما قد يحدث، بل من شيء قد حدث فعلاً:

ـ اخبريني ما الامر!

شهقت ساشا، واستلقت على ظهرها:

ـ حين خرجت من القصر ليلة أمس، فتشت السيدة بروماليس عن الكونت، تطالبه بأن يلحق بك ليعيدك. لكنه، هز

كتفيه وقال شيئاً عن قطة صغيرة أصبحت نمرة، وهو ما لم تفهمه لكنه أرضى پاپا، لأنه لم يعترض. ثم لعبنا الورق ساعة أو أكثر لم نذكر خلالها اسمك ومع ذلك كان غيابك معلقاً فوق الرؤوس كغيمة سوداء... ثم حين حل منتصف الليل، ما عادت السيدة قادرة على كبت غضبها، وبدأت ترغي وتزبد تطالب تيغر بإلغاء الزواج، قائلة إنك لا تليقين به عروساً وإنك ستلحقين العار باسمه. لكن تيغر لم يرد رغم قلقه بل نحّاها جانباً ثم خرج من القصر باحثاً عنك، فجعل تصرفه السيدة تجن وتستدير الى پاپا... وكان الامر فظيعاً يا اليكس! فقد كانت كلماتها مهينة حتى عجز پاپا عن تحملها.. وعندما اتهمتك بالانحلال الخلقي، فقد أعصابه وطفقا يتشاجران، وبعد عدة اتهامات مريرة.. دفعت السيدة بأبي الى الجنون وذلك حين قالت إن والد الكونت سيثور في قبره لفكرة زواج ابنه من فتاة وضيعة.. فصاح پاپا بها:

ـ إذا كانت إحدى ابنتي لا تناسب عائلتكم سيدتي، فلن تناسبها الأخرى! وبهذه الحالة، لن يتم زواج ابنك بساشا.. وأعلن الآن رسمياً سحب موافقتي!

وعادت ساشا الى البكاء، فتمتمت اليكس:

ـ يا إلهي!

تركتها اليكس تبكي، ثم راحت تذرع الغرفة. يجب القيام بشيء ومع إنها لا تعطف كثيراً على ڤيتار، الذي تعتبره ضعيفاً مذبذب الشخصية، خاضعاً لأوامر أمه، إلا أنه يمثّل لساشا كل ما تصبو إليه في الحياة، لذا ليس أمام اليكس إلا حل واحد

وهو المضي قدماً بزواجها من الكونت. إنها الطريقة الوحيدة لانفراج أسارير أبيها المتجهمة، وحتى لا تؤثر العمة على ابن أخيها، وحتى تخمد صوتها عليها أن تتم واجبها تاركة الباقي لله. وإذا كان الكونت مايزال مصراً على الزواج منها كونها صفقة رابحة، فليحدث البيع إذن!

سعت إليه، تتوقع منه الاستهجان.. لكنه حين التفت إليها وضع على وجهه قناع التهذيب، وقال لها كلاماً فاجأها:

ـ أنت لا ترتدين قلادتك.. ستبدو رائعة مع هذا الفستان.

ـ لا أوافقك الرأي، فأنتم تميلون حسب عاداتكم، الى تلوين الزنابق، أما نحن، فنعتبر البساطة أشد تأثيراً.

ـ تقصدين أن الجمال لا يحتاج الى زخرفة.. هه؟ في هذه اللحظات لن أجادلك.

كبحت بقوة أي أثر للسخط أو الألم في صوتها لتقول بكل هدوء:

ـ جئت معتذرة!

ـ إن اعتذارك مبرر هذه المرة. فقد عانيت الأمرين من ساعات القلق ليلة الامس.

التفتت دهشة لأن صوته بدا مخنوقاً، ثم قررت أنها مخطئة.. فرفعت رأسها تقاوم الوهن الذي شعرت به:

ـ لقد أخبرتني ساشا عن الشجار الذي جرى وأريد أن أفعل ما بوسعي لإصلاح ذات البين بين والدي وبين السيدة بروماليس.. لكن قبل هذا.. يجب أن أقص عليك تفاصيل ما

حدث ليلة أمس. فالشرطة رفضت الإصغاء الى أقوالي لكنني أعلم أنك ستصغي إليّ.

واستمع تيغر إليها بصمت وإحدى ذراعيه تستند الى رف المدفأة.. كانت تتحدث بسرعة دون أن تعطيه فرصة لمقاطعتها.

ارتجفت شفتاه مرة حين ذكرت حادثة «القرص» ثم غدا مزاجه ازدراء حين أنهت تفسيرها. ولم تلبث أن طفقت تقول في جمل مفككة تشير الى استعدادها للتعويض عن الضرر الذي أحدثته أفعالها.. وأكملت:

ـ يبدو لي الآن، أن لا بديل آخر عن الزواج... وهذا واجبي الأول تجاه شقيقتي. أمّا عمتك فأظنها نادمة على ملاحظاتها التي قالتها عن غير تفكير.. لكن پاپا لن يهدأ بسهولة.. لذلك إذا استطعت بطريقة ما اقناعه بأنني حقاً أريد الزواج منك، فلن يعترض. فزواجنا سيزيل كل عائق يهدد سعادة ساشا.

رفع تيغر رأسه بحدة:

ـ اعذري بلادة ذهني، لكن ما أعرفه أنك وعدتني بالزواج.. والتحضيرات جارية على قدم وساق منذ عدة أيام. وها أنت تتحدثين عن توصلك الى قرار في هذه اللحظات!

ـ أعلم أنني وعدتك بالزواج. لكنني ما كنت لألتزم بذلك الوعد. كان الوضع بالنسبة لي دائماً غير منطقي، وغير واقعي، كمدينتكم التي تعيش على أمجادها الغابرة، نساؤها يرفلن في عبودية الرجل، الذي يتصرف على هذا الاساس فهل تلومني

على موقفي بعد الحياة التي عشتها في حرية كاملة؟

تحرك بخفة قط، فقصر المسافة بينهما. لم تكن لتصدق أن قبضته قد تكون قاسية هكذا، وما كانت لتظن أن أصابعه قد تحفر في لحم كتفيها حتى الألم.. كان غاضباً جداً.. لاحظت هذا وهو يحرك قبضته عن كتفها ليضع يداً على عنقها، ثم يخفض الاخرى الى خصرها ويشدها نحو صدره.. التمعت عيناه بغضب بارد، والتوى فمه بوحشية من ينوي العقاب.

عانقها عناقاً واحداً، عناقاً دام طويلاً، بدأ تحدياً بين شخصين فولاذيين صلبين لم يلبثا أن تحولا الى معدنين ذائبين، ثم غدا عناقهما لهيباً كاسحاً فبركاناً ينفث حمماً من مشاعر مضطربة.

وأحست في أحضانه أنه يسمها لمدى الحياة... ليس بشكل بارز كالشامة التي على كتفها، والتي يضغط عليها الآن بيده، لكن بشكل يعرف فيه العالم كله بمجرد النظر إليها، أنها ملك له.

لكنه تركها فجأة حتى ترنحت وتهاوت عليه، رأسها الأصهب واهن وكأنه عود ثقاب مكسور.. فسارعت تدعم نفسها بكتفه.. وجاءها صوته وكأنه قادم من بعيد رقيقاً، هادئاً، ليس فيه تأثر يذكر من عناقهما.

ـ لا شيء يصبح حقيقة حتى تختبريه، يا طفلتي.. وأنا آسف لأنني أيقظتك من حلم.. لكنني لن أسمح بأن تتورطي مع رجل تنظرين إليه كظل.. فأنا كائن بشري مثلك تماماً ونحن سنجد معاً الحب في الزواج.

رددت اليكس الكلمة الكريهة:

ـ الحب؟ الحب لن ينتزع أبداً الكراهية التي تعتمل بها نفسي تجاهك.

هز كتفيه:

ـ الحب والكراهية، ميزتان لعاطفة واحدة. لكن ما يهم الآن أنك ودعت أوهامك الى الابد. ربما بعد أن انتزعتك من مهد لامبالاتك قد تبدئين بالاحساس.

جرى دمها بارداً في عروقها وهي تنظر الى وجه غريب.. إنه نمر لا زئير له حيوان لا عضة له.. لكن كل شرور الغابة كانت حوله. فكيف فشلت في رؤية هذا؟ كيف استطاعت أن تنسى، أن من بين كل مخلوقات الله، هناك مخلوق لا يمكن أن يكون عبداً للسوط..

* * *

٧ ـ العروس الذهبية

أشرقت الشمس يوم زفافهما براقة ذهبية.. عندما خطت خارج القصر متعلقة بذراع أبيها، بدا لها كل شيء يلمع.. وكأنما الفنانون رموا ألوانهم فوق الطبيعة أو الجنيات لوحن بأجنحتهن فوق المباني ناثرين عليها الالماس.

كانت سيارة الكونت الفخمة التي تحمل شعار عائلته على بابها تقف أمام الدرج. وحينما ولجتها، قدم لها أحد الخدم يد المساعدة، ثم رتب لها بسرعة الخمار فوق المقعد المخملي... طالبت السيدة بروماليس بمراسم زفاف تليق بعائلة بيرتاكس.. ففي الأيام الغابرة كما أصرت، كانت عرائس اسبارطة حديث كل أوروبا بسبب روعة ثيابهن وعظمة حفلات زفافهن. لذا اهتم بتصفيف شعر اليكس أمهر مصففي الشعر النسائي في المدينة، فبدا شلالاً حريرياً أحمر برّاقاً، كان قد رُدَّ الى الخلف لينسجم مع الاكليل الذهبي الذي ترتديه عرائس عائلة بيرتاكس، أما ما تبقى من الشعر فجدُل بخيوط ذهبية. كانت كتفاها عاريتين، وثوبها، الذي توارثته العرائس أجيالاً إثر أجيال طويلاً، مضموم الخصر، من الحرير الثمين المطرز بخيوط ذهبية.

وانطلقت السيارة نحو الكنيسة مزدانة بشرائط وردية اللون من الساتان والزهور، يتبعها صف طويل من سيارات تنقل الضيوف... لم تكن الكنيسة بعيدة عن القصر.. لكن سيارات المارّة أُوقفت جانباً، حتى تمر سيارة العروس وسيارات الضيوف. وراحت هذه السيارات المتوقفة جانباً تطلق أبواقها تحية. فأجبرت اليكس نفسها على رد التلويحات الودية والابتسامات المرحة التي يطلقها المتفرجون المصطفون على جوانب الطريق.. لكن قلبها أخذ يزداد ثقلاً مع مرور الدقائق حتى توقفت السيارة أخيراً أمام الكنيسة وخرج الكاهن فوراً مبتسماً ليستقبلها، فأحست بجسدها يزداد وزناً... وتناهى الى أنفها مزيج من عبق البخور الشرقي وأريج الزهور، لكنها رائحة علقت في حلقها مما جعلها تسعل.

كانت خلال الاسابيع التي انصرمت قد أصبحت بليدة الحس، خاملة كل الخمول، مشلولة الإرادة.. وكأنما الضغط المشترك ما بين تيغر وڤيتار ووالدته، وساشا ووالدها حطم لها روحها المعنوية. وحول القطة الشرسة الى حمل وديع.

حين دس الكونت خاتماً ثقيلاً في اصبعها شهقت وسحبت يدها دون عمد.. لكن تيغر كان مستعداً لمثل ردة الفعل هذه، فأمسك بمعصمها وتابع دس الخاتم في مكانه. ثم انتهى الامر وأصبحت والكونت رجلاً وزوجته..

بدأ أولاد الكورس يغنون على أنغام الأرغن وراح الضيوف يضحكون ويتحدثون. أما الكاهن فابتسم سعيداً فخوراً بعد أن حكم عليها بالسجن المؤبد.

أحنى تيغر رأسه، وقبل أن تستطيع الحراك قبّل عروسه وتمتم:

ـ فليدم زواجنا الى الأبد حبيبتي!

لكنها قالت بطريقة لا تليق بعروس:

ـ ليس إذا كان بامكاني أن أفسد الأمر!

ارتفع حاجباه، أولاً ثم لم يلبث أن سار معها في ممر الكنيسة مبتعداً بها عن المذبح، باتجاه السيارة المزدانة التي يرتسم على أبوابها شعار العائلة وعلى مقدمتها تمثال نمر ذهبي يلمع تحت أشعة الشمس.

كان في القصر الاحتفال الكبير وكأنه احتفال بنصر حربي سيدته ومصممته السيدة بروماليس التي كانت في أحلى حالاتها، وكيف لا وسيكون بين يديها ما يكفيها من مال لاستعادة أمجاد الأمس..

تقدمت منها ساشا وهما يقفان لاستقبال الضيوف عند باب القصر.

ـ هل أحضر لك شيئاً اليكس؟ أنت جائعة دون شك فلم تتناولي الفطور، ولم تتناولي عشاء أيضاً ليلة أمس.

كانت قلقة مهتمة بأختها التي أصبحت تعتبرها الآن حليفاً لا عائقاً. فسارع تيغر يرد عن اليكس التي لوحت يدها رافضة:

ـ أجل.. أرجوك ساشا.. احضري لها شيئاً.. فنحن مضطران للبقاء هنا فترة طويلة...

لكن اليكس أصرّت ببرود:

ـ لا تزعجي نفسك.. فقد فاضت نفسي مما دخل إليها من شياطين في يوم واحد.

لم يكن هناك مجال للخطأ فيما تقصد، فشهقت ساشا:

ـ كيف تلمحين الى أن تيغر شيطان... إنه سيد مهذب!

نظرت إليها اليكس نظرة متحجرة:

ـ حسب وصف الكتب، يظهر الشيطان في كثير من الأوقات في ثياب رجل مهذب!

ارتفعت كتفا ساشا بيأس، ترمق تيغر بنظرة اشفاق. وقالت له متوسلة:

ـ كيف ستتمكن من تطبيعها تيغر..؟ لقد أوصلتني وپاپا الى حافة الجنون، فما الذي تستطيع القيام به ما استطعنا القيام به نحن؟

ـ ربما لسان رقيق عذب.

كان رده الرزين يحمل نوعاً من الصد لم يعجب ساشا. فالكونت قد يكون قاطعاً بارداً متى شاء.. أحست للحظات بالاشفاق على اليكس، التي طالما كانت تقول إن اسلافه من النمور لم يكونوا سوى قطط لا أنياب لهم. وهزت رأسها عاجزة فطباعهما أكثر تعقيداً مما قد يستطيع فكرها تصوره. وما هي إلا لحظات حتى ارتدت على عقبيها باحثة عن ڤيتار.. ما أسعدها أن طباعه تختلف كثيراً عن طباع ابن خاله. الرجل الذي يجعلها ترتجف، الرجل الذي تراه غير قادر على التمتع بنصر دون معركة.

بعد الانتهاء من استقبال الضيوف، رفع تيغر يدها الى فمه يقبلها.

ـ لقد تصرفت بشكل رائع اليوم عزيزتي.. في الواقع، خلال الاسبوع المنصرم بدوت طيّعة. فهل اعتدت أخيراً على فكرة الزواج بي؟ إنه لمن الرائع أن يبدأ شهر العسل بتناغم لا بنفور.

تجمّع كل إحباطها وخيبة أملها في النظرة التي رمقته بها.

ـ إذا كنت تظن هذا.. فأنا إذن ممثلة بارعة أكثر مما توقعت. إن أسعدك تصرفي فقد أسعد پاپا أيضاً، وهذا هو هدفي الأساسي. لكن بما أننا متزوجان الآن، ولن يتمكن من التراجع عن وعده بزواج ساشا وڤيتار فسأعود الى طبيعتي بإضافة قسم آخر الى القسم الذي تفوهت به. لك وعدي سيدي، من الآن وصاعداً أن تندم على قبولك بي زوجة!

لكن الكونت هز كتفيه بهدوء، وقدم لها ذراعه بأدب قائلاً:

ـ ضيوفنا بالانتظار. لذا أرجو أن تكملي تمثيلك ساعتين أخريين مظهرة نفسك بمظهر العروس السعيدة.

رغم صعوبة الأمر إلا أنها نجحت في أن تفعل ما طلبه منها، فاختلطت بحرية مع الضيوف، تضحك، تتحدث، بطريقة لا شائبة فيها، تتعرف الى الأقارب والى المعارف مبتسمة، لكنها وهي بينهم توقعت رؤية جانيت، الفتاة التي عذبها اسمها منذ سمعته من ڤيتار وهو يمازح الكونت قبل أن تعرفه. لكن التعارف هذا لم يتم.

قال أحد أعمام تيغاروس له:

ـ ما هذا الملاك الذي أحضرته الى العائلة يا تيغر؟

ـ لكنها ملاك ذو طباع حادة يا عمي...

فضحك العم:

ـ طالما فضلت الطباع الحادة على الخنوع.. فأنا أنظر الى الخنوع كنقيصة، بينما أعتبر الطباع الحادة فضيلة صادقة.

فقالت اليكس بدلال:

ـ هلاّ عذرتني يا عم؟

وأمسكت بذراع تيغر بطريقة متملكة، وقرصته سراً.. فابيضت شفتاه غيظاً لكنه لم يتحرك بل غطى بيده أصابعها التي تقرصه، ثم ضغط عليها حتى كاد يسحقها، فما كان منها إلا أن تركت لحم ذراعه من بين أصابعها. وبعد ذلك عادا يتبادلان الحديث المهذب مع عمه.

استمر تألقها طوال السهرة حتى أشار الى ساشا ليكلمها همساً:

ـ واجبنا انتهى.. بامكاننا الانسحاب دون إغضاب أحد.. فسيبقى معظم الضيوف ساعات أخرى، وأعتقد أنك ووالدك وڤيتار وأمه قادرين على التعامل معهم.. ربما ترافقين اليكس الى فوق لتساعديها على الاستعداد لرحلة شهر العسل. أظنها متعبة.

لم تجادل للمرة الأولى اليكس وكانت حكيمة بذلك لأنها كانت تحس فعلاً بالتعب، والاكتئاب، والحيرة، في آن. وتسارع الدم حاراً في عروقها وهي تفكر في العزلة التي ستقضيها مع الرجل الذي تزوجته لتوها. سيقضيان شهر عسلهما

في ڤيلا تقع على شاطىء جزيرة تستخدمها العائلة خلال الصيف.. نعم لقد ارتعبت عندما سمعت اقتراح تيغر، لكن أخفت رعبها واعتراضها لأن أباها كان موجوداً حينها، وما قبلت بخطته إلا لتخمد غضب نيقولاس كورديس «أبيها»..

اجتمع الضيوف في الباحة وأمام المدخل ليلوحوا للعروسين.. كان الوقت مايزال باكراً في المساء... حالما وجّه تيغر السيارة الى قرية الصيادين حيث ينتظرهما المركب الذي سيحملهما الى الجزيرة، جلست اليكس في مقعدها، ترتجف من البرد على الرغم من أشعة الشمس التي ترسل أشعتها فوق الرؤوس. وكان البحر وشاحاً فضياً، والزبد وراءهما ماسياً.

سرعان ما دخلا جون الجزيرة، الشبيه ببحيرة، فراح المركب يسرع الى شاطىء واسع مكتظ بالفنادق والمحلات والنوادي الليلية. فتعجبت اليكس لأن رجلاً مثله يقدّس العزلة يختار مكاناً كهذا.

لكن المركب تجاوز طول الشاطىء المكتظ بالمظلات الكبيرة الواقية من أشعة الشمس، وبالاطفال الصاخبين والكلاب النابحة، ولم يخفف من سرعته إلا حينما وصلا الى شاطىء هادىء ممتد مسيج بالشجيرات الشائكة والنباتات المتسلقة، المدعومة بجذوع الشجر.. هنا، كانت دلائل السكن قليلة، لذلك لم تدهش اليكس حين وجّه المركب الى ممر ضيق متعرج، يحيط به العشب النامي، وكأنهما مستكشفان يفتحان طريقاً لهما عبر نهر غير معروف في قارة مظلمة مجهولة.

ساعدها على الخروج من المركب دون أن يعلّق بكلمة واحدة ثم ترك يدها في يده، وسار معها على ممر متصاعد، تحف به حديقة خضراء، في وسطها ڤيلا تغطيها نباتات بيضاء، مزروعة ببراعة لتتسلق حتى تعطي أقصى ما يمكن من امتصاص لحرارة الصيف. كان يعلو المبنى الضخم سقف مزدوج متشابك، ممتد من الأعلى نحو الأسفل وكأنه شراع أُعِدَّ لالتقاط الريح، تدعمه عواميد رفيعة مرتفعة، أضفت على المنزل مظهر التوازن الدقيق، المرتكز ما بين البحر والريح.

تقدما حتى ارتقيا درجاً يقع في نهاية الممر المرتفع الى الأعلى، ثم دخلا ردهة باردة سقفها قرميدي. وقال لها تيغر شارحاً:

ـ هذا الدرج يصل ما بين مدخلي المنزل. أحدهما من الأمام، والآخر هو الذي استخدمناه لتونا، من الخلف. وهو يقسم المنزل الى قسمين.. غرفتك هي التي تحت السقف القرميدي. والغرفة الصغرى التي تحتها غرفتي.

أطلق الارتياح عقدة لسانها:

ـ هذه السقوف العريضة الممتدة مميزة جداً. إنها كجناحي نسر يحمي عشه.

ضحك على وصفها، وبدا عليه السرور:

ـ لم تصمم على هذا النحو هباء، بل صنعت بذكاء حتى تجمع مياه المطر في الحوض ولتظلل المنزل في قيظ الصيف. وبما أنه من الداخل خال من الجدران. فالهواء يدور بسهولة. وكما ترين، الجدران متروكة دون اتصال بالسقف لإفساح

المجال للمزيد من البرودة. أما الدفء فغير مطلوب هنا، لأنه أساساً منزل صيفي. تعالي سأريك غرفة نومك. وأقترح عليك الراحة ساعة أو ساعتين. تبدين متعبة عزيزتي... ويسعدني أن تستريحي حتى تتمتعي بالعشاء، لقد خططت لعشاء مميز احتفالاً بليلتنا الأولى.

كانت الغرفة التي أدخلها إليها مثالاً للبساطة اليونانية الشهيرة، فيها أريكة عصرية تشبه «الديوان»، وكرسيان. وفي وسط الغرفة نتوء صممت على أن تكون طاولة زينة يتوسط هذه الطاولة مرآة، ورفاً زجاجي لوضع أدوات الزينة عليه.

ـ حسناً.. ما رأيك؟

كان ردها نفساً عميقاً.. فللڤيلا المعزولة مناظر ساحرة إذ تحيط بها زرقة البحر، والسماء الخالية من الغيوم. وتمتد تحتها سفوح خضراء تترامى الى شاطىء معزول تنتشر فوقه الأصداف وتقبّل أقدامه الأمواج، بانتظارهما وحدهما. إنه عش حب مثالي، وكر نسر لا يقهر، جنة للعشاق، خاصة لمن هم في شهر عسل يحتاجون الى الموقع الجميل، والحرية من الإزعاج الانساني، والوقت الكافي لاستكشاف ما في أفكار الشريك، الامر الذي، قد يؤدي الى اكتشاف ما في الشريك الآخر من تعقيدات طبيعية ربما لم يشاهدها فيه من قبل.

ارتجفت من أفكارها، فقطب تيغر جبينه لهذا وكان صوته الحاد القاطع دليلاً على أن لصبره حدوداً.

ـ سأتركك حتى تستريحي. ربما فيما بعد، حين تستريحين تشعرين بميل الى إبداء إعجابك.. أو عدمه!

حين صفق الباب وراءه، بدأت آلياً تفك أزرار فستانها. لقد بدا منزعجاً خائب الأمل لأنها لم تفه بكلمة تقدير أو اعجاب بالڤيلا السابحة تحت أشعة الشمس والمتوقع أن تبدي اعجابها بها... لكنها متعبة أكثر من أن تستطيع الاعجاب بأي شيء، ولقد قاومت إظهار اعجابها لئلا يعتبر زوجها كلامها دليلاً على الليونة أو التشجيع.

جرت خطواتها المتثاقلة في الغرفة، وغرقت فوق السرير. يجب أن تنام إذا كانت تريد تحضير روحها المتعبة وجسدها المتوتر وذهنها المتلبد للأيام المفزعة القادمة ولليالي التي تلوح لها قاتمة.

* * *

٨ ـ تنفيذ الوعد

ـ هل استيقظت عزيزتي؟

قاومت اليكس نعاسها ثم هبت من نوم كانت تحلم فيه بأن طائراً مفترساً كبيراً يحوم فوق سريرها. فحدقت دون وعي في الشكل الضبابي أمامها، تدفع عن نفسها الذعر المتصاعد، لكن خوفها لم يخفّ حين برز أمامها وجه تيغر بوضوح، رأسه الأسود تحيط به هالة حادة من كرة الشمس الضخمة التي تنزلق ببطء وراء النافذة.

ـ تنامين كالطفلة!

في صوته تسامح وتدليل، وكأنه صادر عن أب.. لكن نظرته على بشرة كتفها العاجية لم تكن هكذا. مما جعلها تدرك فجأة أنها لا ترتدي سوى الثياب الداخلية.. فاحمرّ وجهها.

ـ وتحمرين خجلاً كطفلة كذلك.. طفلة متقلبة، متحررة ومتزمتة في آن.

ـ لست متزمتة!

وجلست بحدة لتبرهن كلامها.. أنزلت ساقيها النحيلتين عن السرير، ثم وقفت تبحث عما يحميها من نظراته ولو كان رقيقاً.

مد يده مبتسماً الى مبذل مشمشي اللون كان على أسفل الفراش. ثم قال وهو يرفع حاجبيه:

ـ أهذا ما تفتشين عنه؟ لا أرى ضرورة له.. فالطقس مايزال دافئاً.

كانت حرارة الغرفة لا تطاق ورغم ذلك انتزعت الروب من يده وكأنها ترتجف من برد الشتاء، فلفته حولها، ثم سألت:

ـ كيف دخلت الى هنا؟ وماذا تفعل في غرفتي؟ كان عليك من قبيل اللياقة والأدب أن تدق الباب.

جلس على طرف سريرها، ينظر ببرود الى محاولاتها المتعثرة لاقفال أزرار ياقة المبذل.

ـ دعيني أساعدك.

أجفلتها حركته السريعة، فقد تخلى عن استلقائه على مرفقه وقفز برشاقة حتى أصبح الى جانبها دون جهد.. فارتدت مرتبكة لكنها وجدت صعوبة في أن تقول له، بشيء من السلطة، أي شيء خاصة بعد أن راحت أصابعه تعبث بالازرار... لكنها تمكنت من القول بعد أن انتهى:

ـ أتسمح بالذهاب الآن.. إياك أن تدخل غرفتي مرة أخرى، دون إذن مني!

لكنه رد عليها بسخرية أغضبتها:

ـ إذا منعتني من الوصول الى غرفتك، فكيف سأقوم بواجباتي؟.. إذا كنت ترغبين في خدمات «الصاحب» فعليك أن تتحملي وجودي. إنني الآن أحضّر لك الحمام، وسأساعدك على تسريح شعرك.. انظري بنفسك...

وفتح باب الخزانة وراءه، فبان صف من الفساتين المرتبة ترتيباً دقيقاً.. وتابع:

ـ.. لقد أخرجت لك الثياب من الحقائب! والآن سأحضّر لك الحمام. وفي الوقت الذي ستقضينه في الحمام، أكون قد وضعت اللمسات الأخيرة على العشاء الذي حضرته أثناء نومك. تعالي الآن يا صغيرتي.

أمسكت أصابعه السمراء بوجهها:

ـ يجب أن تعترفي بأنني أفي بالالتزامات التي تخصني من الاتفاق.. وحرماني من دخول غرفتك سيدل على أنك مترددة في الايفاء بوعدك، وقد يشجعني ترددك هذا على الاعتقاد بأن دور الزوج المتوحش يروقك أكثر!

وجدت أنه يتمتع بالمزاح على حسابها.. ما من كلمة قالها إلا وفيها رنة السخرية. إنه يستجيب لخدعتها، يتحداها أن تختار ما بين شرّين متوازيين.. إما أن تختار أن يكون ظله في أعقابها دائماً.. أو توافق على قبوله زوجاً بكل ما للكلمة من معنى حميم.. لكنها لم ترد بسرعة، بل نظرت إليه بازدراء، ثم قالت:

ـ حسن جداً.. قم بواجباتك. أريد أن يكون الحمام جاهزاً بعد خمس دقائق!

ـ فلتكن إرادتك يا كونتيستي الجميلة!

ورفع قبضة يدها المشدودة الى شفتيه وقبلها، فانتزعتها منه:

ـ توقف عن هذا!

لكنها غضبت من نفسها لأنها أظهرت هذا التوتر... وقال لها:

ـ سأخرج لك الثوب الأسود.. ارتديه أرجوك.. فهو رائع عليك.

صرّت على أسنانها، إذ كانت قد وضعت الثوب في مكان قصي في الخزانة. وطلبت من الخادمة ألا تخرجه من مكانه. لكن شخصاً قد خالف أمرها هذا.. وليس ذلك الشخص إلا هذا الذي تنظر الى عينيه الذهبيتين الشبيهتين بعيني شيطان.

ـ سأفعل.. لكنني لا أجد أهمية لما أرتديه مادام لن يكون هناك سوانا على العشاء.

بدأت تفهم الآن بوضوح كيف سينفذ الأسلوب الذكي يومياً.. الهجوم والدفاع، الحكم البارع، الفن الذي سيحوله الى افراط في التأنق.. يجب أن تبقى متيقظة مترقبة كل تحركاته ويجب أن تكون مستعدة لصد كل هجوم يقوم به وذلك بالحركة المعاكسة المناسبة.

نزلت الى الطابق الأرضي هادئة باردة، أعصابها على استعداد للتيقظ عند أول لمحة خطر... التقاها تيغر في الردهة فرافقها الى غرفة الطعام.. رنت أجراس الخطر في ذهنها حين واجهها جو ذكرها بجو «حريم السلطان». اقتادها الى طاولة رائعة المنظر، فوقها أدوات طعام فضية، مدموغة جميعها بشعار عائلة بيرتاكس. كانت نظرة النمر الذهبية اللامعة، تبدو وكأنها تلحق بها أينما ذهبت.. وكانت الموسيقى الخفيفة، المغرية، الرومانسية تتهادى في الجو حتى لا تكاد تلتقطها الآذان. أما

وجه رفيقها الحذر فيبدو متناقضاً مع سترته البيضاء.. كوّن كل هذا مجتمعاً، نوعاً من الهجوم على أعصابها، وأنتج عنه تحذيراً مذعوراً ترجمه دماغها بكلمة واحدة: احذري!

صب لها كأس عصير بارد، ونظر الى وجهها وهي تتقبله.. فارتشفت القليل منه ثم قالت لتحطم الجو الحميم الذي أحدق بها:

ـ أليس المكان مظلماً هنا؟ أريد رؤية ما أتناول من طعام. ألا تضيء الأنوار، أرجوك؟

ضاقت عيناه وهو يزن طلبها.. أهو نابع من التوتر أم من الضرورة. واغتبطت سراً حين أذعن على مضض فقد أضاء مصباحاً صغيراً قابعاً فوق طاولة صغيرة في زاوية الغرفة.

تركها بسلام تتناول طعامها بهدوء وتتمتع بالعصير. وحين رفع الابريق ليصب لها ثانية قالت معتذرة:

ـ شكراً لك، لا أريد المزيد.

ـ ألم يعجبك العصير؟

ـ بلى.. لكنني شبعت. شكراً لك.

ـ هراء.. فالطعام اللذيذ يحبه من في الجنة أو في النار على السواء.

رفعت رأسها لتكشف عن عنق رائع:

ـ وفي أي جهة تراني أنا؟

راحت عيناه تمعنان النظر في استدارة كتفيها، ثم انتقلتا للاستكشاف كما حدث حين رآها للمرة الأولى ترتدي الفستان الأسود. تمتم، وعيناه مستقرتان على صدرها:

ـ من يعلم بالضبط أين تسكن الملائكة؟

وسرعان ما شعرت بأعصابها تضطرب، فمدت يدها وتناولت شرابها ثانية، لكن يدها أخطأت الهدف، فقلبت الكأس التي انساب ما فيها على الطاولة ومنها الى حضن تيغر. فقفز ليتجنب البلل وأسرعت اليكس تمسك الفوطة وتتمتم معتذرة ثم راحت تجفف العصير عن سترته.

ـ يا لي من خرقاء..! أنا آسفة جداً. هذا طيش لا يغتفر...

أطبقت يداه على كتفيها لتوقفها فإذا بعينيها المضطربتين تحملقان في وجهه الذي ما عاد ساخراً، وفي عينيه اللتين اشتعلتا بنار ذهبية وفي فمه المتجهم المتشدد.

ـ اليكس! اليكس.. أحبك!

وجذبها إليه حتى استند رأسها الى قلبه.. وقبل أن تتمكن من التراجع كانت ذراعاه تشتدان حولها تشعرانها بلهيب اجتاح ظهرها المكشوف. أحنى رأسه إليها ببطء فاستجابت هي له بقوة، تلبي نداءه وتتفاعل وتذوب في عناقه. إنها ليست من البشر إن لم تتأثر بسحر الشموع، وبرائحة الورود الشذية وبالموسيقى الرومانسية التي أشعلت في نفسها أحاسيس جديدة عليها، تركتها مكشوفة أمام أنواع الخطر، خاصة أمام تقدمات زوجها الوحشي الجاذبية.

رفعت من جديد جسدها إليه، حالمة ضائعة. لتعقد ذراعيها حول عنقه، مستجيبة الى نيران الرغبة الملحة في نفسها، فكان أن زادت هذه الحركة من اشتعال جوعه..

لم تحتج حين حملها ليرتقي بها الدرج وصولاً الى غرفتها.. ثم لمّا وصل وضعها فوق السرير بلطف ووقار متمتماً بكلمات تحببية حارة وهو يفك لها سحاب الفستان.

كانت الدقة التي أتم بها خلع فستانها، لها ردة فعل باردة على أعصابها. فبدأت المقاومة:

ـ لا!

وارتدت الى جنبها في محاولة للتحرر من ذراعيه.. عندها أحست بانطباع لهيب شفتيه على كتفها حيث الشامة السوداء الشيطانية.. وتمتم:

ـ كم تقت الى تقبيلها حبيبتي! كيف تشعرين ووسم الشيطان على كتفك؟

ـ أشعر بالخزي التام!

وتمكنت تحت عامل الذهول من التحرر من قبضته. أعطته ظهرها ثم أسرعت تمد يدها الى روبها وهي ترميه بالاتهامات غاضبة، ثم أردفت قائلة:

ـ يقع بعض اللوم عليّ.. لست أفهم كيف سمحت لهذا أن يحدث.. إنك دون شك تعتقدني بسيطة، ساذجة، حمقاء، رأسها يدور لأتفه غزل، على يد من ينوي الاغواء!.. أنت تتلاعب بيديك جيداً يا سيد.. وقد استخدمت براعتك كلها حتى اكتشفت أين مكمن ضعفي، لكنني لحسن الحظ استعدت عقلي في الوقت المناسب لأفسد ألاعيبك!

استدارت لتبحث عنه في الغرفة المظلمة فوجدته يقف أمام النافذة بصمت وتوتر وهدوء ثائر، فعصفت بكلامها الغاضب:

ـ أرجو منك أن تتذكر مستقبلاً.. أنني أنا من يحمل الاوراق الرابحة كلها. لقد دفع لك پاپا المال لتتزوجني.. ولن أسمح لك بأن تنسى هذا.

تقدم نحوها بوجه متجهم صارم.. فارتدت الى الوراء، حتى وصلت الى الزاوية وأحست بالجدارين وراءها وهو أمامها. حين مد يده ليلمسها، دفعت يده عنها، مع ذلك تمكن من الامساك بكتفيها برقة:

ـ لا تقولي شيئاً الآن اليكسندرا... ليس وأنت غاضبة. أستطيع فهم شعورك، أنت مصدومة، حائرة، خجلى قليلاً، لكن لا سبب لكل هذا يا طفلتي.. فمنذ لحظات أظهرت قدرة هائلة على الحب والعطاء.. هذا إذا سمحت لنفسك. إن كل ما تحتاجين إليه هو الوقت، وما عليّ أنا إلا أن أظهر المزيد من الصبر.. نامي الآن اليكس.. وفكري في ما قلته لك.

أحست بأنها توشك أن تبكي. كانت الدموع تقفز الى عينيها فتؤلمها ثم جاء الغضب لنجدتها:

ـ حقاً سيدي.. أنت تتكلم وكأنك تُحدّث طفلة! أنا لست غريبة على العواطف، لذا لا أصدم بسرعة. أنت قديم الطراز تثير الشفقة. النساء في هذه الأيام ما عدن جاهلات العواطف.

مرت أصابعه بلطف على كتفيها، وفاجأها بالسؤال:

ـ لماذا ترتجفين..؟ أتحسين بالبرد؟

ـ لا!

ـ إذن.. أنت خائفة مني؟

ـ بالطبع لا!

ـ لماذا ترتجفين إذن؟

انتزعت نفسها من قبضته.

ـ إذا كنت ارتجفت يا سيد، فليس من الخوف.. مارأيك لو قلت لك إنك إن نجحت في اغوائي، فلن تكون أول رجل؟

ارتّد خطوة الى الوراء لينظر إليها بهدوء:

ـ إذا كان هذا سؤالاً افتراضياً، فالرد عليه سيكون غير ضروري.. لكن إذا كان مبنياً على واقع...

ـ أجل.. إنه مبني على واقع.. فماذا بعد؟

مد يده ليمسك بخناقها بأصابع رقيقة قبل أن يقول بطريقة مرحة:

ـ من الجائز أن أخنقك!

* * *

٩ ـ يأكل من يديها

مرّ على وجودهما في الڤيلا ثلاثة أيام، لم يحدث فيها أن ذكر تيغر ما يشير الى الليلة الأولى وكان قد عاد يعاملها معاملة الأب المتسامح. احترم رغبتها في أن تكون وحدها وما اعترض البتة حين كانت تختفي بسرعة بعد الفطور مباشرة قاصدة الممر الموصل الى الشاطىء، حيث كانت فيه تستكشف المغاور الصغيرة، وتفتش عن الأصداف النادرة أو تجلس ساعات، ترمس قدميها في مياه البحر الدافئة.

لكنها أحست أخيراً بالإرهاق، وبدأت العزلة تؤثر فيها. لذلك فاجأته اليوم ببقائها مدة أطول على مائدة الفطور حتى سألها باستغراب:

ـ وكأنك حائرة.. ألم تخططي لشيء اليوم؟

ـ ليس في الواقع.. سأنزل الى الشاطىء فيما بعد.

ـ لماذا لا تنضمين إلي للسباحة في البركة.. وبعد الغداء قد نخرج الى نزهة؟

ارتجفت اضطراباً، الدعوة العفوية التي أطلقها لم تكن تحمل إلحاحاً وكأنه لن يكترث إن قبلت أم رفضت. لذلك كان قبولها الدعوة عفوياً:

ـ سأفعل.. أعتقد.

بعد وصولهما الى القيلا بيوم، جاءت خادمة من القرية المجاورة لتقوم على خدمتهما يومياً، دون أن تبقى ليلاً، ظهرت في تلك اللحظة تحمل صينية عليها إبريق كبير من عصير البرتقال البارد، وطبق من البسكويت باللوز. فابتسمت اليكس بسعادة:

ـ شكراً لك ماريكا، اتركي الصينية على الطاولة، سأصب الشراب عندما يكون السيد جاهزاً.

ردت ماريكا الابتسامة، وانحنت تأدباً.. لكن أساريرها، بعد أن ابتعدت، اكتست التعجب.. فزوجة السيد شابة جميلة، وهي منذ ثلاثة أيام تنام وحدها في غرفة منفصلة وهي الى ذلك منذ ثلاثة أيام أيضاً تتجول وحدها تاركة زوجها في القيلا.. فكيف يعمّر الأميركيون بلادهم بالأولاد إذن؟ لم يصدقها زوجها حين أخبرته وقد قال لها دهشاً: لا.. لا.. الكونت رجل نشيط، لن يقبل بحياة العزوبة خاصة في شهر عسله..!

تهللت أسارير ماريكا.. إنهما اليوم مازالا معاً، ولمّا يفترقا.. لربما الليلة إذن...!

تمددت اليكس على مقعد النوم الطويل عند حافة بركة السباحة تراقب تيغر يشق طريقه عبر المياه الزبرجدية اللون، اجتاز البركة حتى الآن بضربات ما يزيد عن عشر مرات، وماتزال حركاته قوية وكأنه قادر على الاستمرار هكذا أجيالاً.

خرج تيغر من الماء ووقف متمايلاً على حافة البركة، يحرك عضلاته، بينما الشمس تجفف الماء عن بشرته البنية التي جعلتها

أشعة الشمس بلون الجوز، فأشاحت بوجهها عن جسده المفتول، تتساءل كيف أساءت الحكم عليه يوماً فحسبته قطاً لا أنياب له. فلهذا النمر الذي لا زئير له، أنياب.. أنياب عضت بكل لطف لحمها وبعثت فيها نشوة الألم. جرى الدم حاراً في وجنتيها وهي تتذكر ما حدث، فمدت يدها الى إبريق عصير البرتقال على أمل أن يمرّ احمرار بشرتها دون ملاحظة.. لكن لا شيء مما تفعله قد يغيب عن عينيه الثاقبتين.

رمى بنفسه فوق الكرسي الطويل المجاور لها:

ـ يبدو وكأنك تشعرين بالحر. ربما عليك السعي الى الظل. فبشرتك البيضاء لمّا تعتد على حرارة شمسنا.

أحست ورغم مضي ثلاثة أيام على ما حدث، بكلماته توتر أعصابها.. لكنها أحست أكثر بكراهية لضعفها.. وبدا التوتر واضحاً في صوتها وهي تسأل:

ـ حتام يجب أن نبقى هنا؟

ـ وهل مللت القيلا؟ ربما هي غلطتي لأنني أهملت تسليتك. فأنا من أنصار الوحدة، لكن يجب ألا أنسى أن الآخرين قد لا يشاركونني رأيي. وبما أننا سنبقى هنا أسبوعين آخرين فيجب أن أصحح خطئي.

شهقت اليكس واتسعت عيناها برعب:

ـ أسبوعين! لماذا لا نعود قبل هذا الوقت؟

ـ لأن الاعمال الآن تجري لتدعيم أساس القصر، وهذا عمل يشمل بعض التفجيرات كي يتمكن العاملون من دفع الاسمنت الى الأساس القديم.

ردت بلؤم:

ـ لم تهدر وقتك فقد استفدت من «دوطتي»! أخفت أن يغير پاپا رأيه؟

رد عليها بلطف:

ـ أبداً.. بكل بساطة هذا النوع من الاعمال لا يتم إلا في أوقات محددة من السنة وقد صودف أن هذا الوقت هو الأنسب.

اندفعت لسبب مجهول الى تكديره وتغيير تعبيرات وجهه الهادئة المستحقة لعنة:

ـ إن المسألة لا تتعدى الاسراف في انفاق المال. فتقارير الخبراء، تفيد أن أساس القصور القديمة لا ينفع معها الترميم.

هز رأسه بحزن:

ـ أجل.. هناك أماكن كثيرة في المدينة القديمة، كانت يوماً فوق مستوى الأرض ثم أصبحت تحتها.. هناك في أنحاء المدينة كلها دلائل تشير الى تداعي كل ما هو قديم. فثمة شرفات ونوافذ وجدران تحتاج الى تدعيم، وتصليحها يقتضي تكاليف باهظة. لكن هناك من يعمل في الوقت الحاضر على اصلاح ما يستطيع ضمن أملاكه وأملاك غيره.

قفزت واقفة، فبان جسدها فتاناً في المايوه الذي التصق بجسدها. قالت له فجأة:

ـ لقد اكتفيت من الشمس. سأدخل.

فهز لها رأسه موافقاً، وراقبها عابساً، وهي تختفي عن ناظريه.

راحت في غرفتها تدور وتدور متسائلة عن هذا القلق الذي يسيطر عليها.. أخيراً جلست تنتظر، بصمت متمنية مجيء تيغر، وحين قُرع الباب قفزت لتفتحه، ثم انتظرت بصبر فارغ ليتكلم.. فتردد قليلاً وهو يراها أمامه، وابتسم:

ـ فتاة طيبة! إذا كنت جاهزة، نستطيع الانطلاق.

خطت الى الأمام متشوقة:

ـ الى أين؟ وكيف سنصل الى هناك؟

ـ بالسيارة طبعاً. ألم أقل لك قبلاً إن الڤيلا ليست ببعيدة عن الطريق العام، واننا نحتفظ هناك بكراج نضع فيه سيارة بشكل دائم؟

ـ سيارة؟ في هذه الحالة نستطيع الذهاب الى أبعد...

ـ الى الكازينو؟..

ـ كيف عرفت أنني أرغب في الذهاب الى هناك؟

ـ عزيزتي اليكس.. إنك كالطفل الذي يترقب بشوق قضاء يوم على شاطىء البحر. ولولا ارتداؤك أبهى حلة لزودتك بدلو ومجرفة للرمل!

كان الطريق الى المنتجع البحري مثيراً ومنشطاً. وكانت سيارته القوية الرياضية، تهدر طوال الطريق، تأكل المسافة أكلاً.. راحت اليكس، التي بدأت مؤخراً في التفكير بما يملكه الكونت من ڤيلا فخمة وسيارة باهظة الثمن كهذه تتساءل من أين له هذا؟

ـ تيغر.. لماذا لا تتخذ لك وظيفة؟

وكاد يخرج بالسيارة عن الطريق، لكنه أجابها بنعومة:

ـ كنت أعتقد أن لدي وظيفة!

ـ أنت تسيء فهمي معمداً! أعرف أنك تعتبر نفسك مشغولاً بمصالح العائلة.. لكنني أتحدث عن وظيفة أعني وظيفة لها راتب!

ـ أليس لكل وظيفة راتب بطريقة أو أخرى؟

ران عليها صمت الحيرة.. فمع أنه فقير إلا أنه يحافظ على مستوى رفيع.. فيلا وسيارات في القصر، وسيارة هنا، وأثريات لا تثمّن داخل القصر، وخدم. إن هذا كله يدل على أنه ليس معدماً. ربما هو الآن يستفيد في ترميم القصر من دوطتها لكن كيف يؤمن المال لدفع ما تبقى من مصاريف؟

أوقف السيارة في مواجهة البحر وقال لها بلهجة متسامحة، وكأنه أب يتحضر لمكافأة طفلته:

ـ اليوم كله لك.. افعلي ما شئت.

فقالت له متوسلة:

ـ فلنتمشَ.

أسر ناظريها منظر شوارع مزدانة بالزهور وبالنباتات، فتمنت لو يأتيان الى هنا ليلاً لترى تأثير المصابيح المعلقة في حلقات وسلاسل عليها، تنشقت الهواء العليل بعمق وقدماها تنتقلان بسرعة حتى تتبع خطوات تيغر السريعة فقد كان يسير ورأسه محني الى الأمام، ويداه في جيبيه دون أن يتأمل جمال ما يحيط بهما. وشهقت قائلة:

ـ هل تخفف سرعتك بعض الشيء؟

توقف فجأة فاصطدمت به، وكادت تقع لولا سرعته في

الامساك بذراعها. وقال لها مقطباً:

ـ يا لقلة تفكيري.. لم أكن أدرك...

ولمح طاولة فارغة في مقهى رصيف مجاور:

ـ اجلسي هنا بينما أطلب بعض المرطبات.. فالطقس حار.. وقد كنت غبياً لأنني عجلت في المسير في هذه الحرارة! لماذا لا تضعين قبعة على رأسك؟

ـ ما اعتقدتها ضرورية. إذ كان الطقس بارداً في الڤيلا.

ـ دعيني أضع الكرسي تحت ظل المظلة... والآن اجلسي هنا ولا تتحركي حتى أعود.

قبل أن يعود قدّم الساقي لها الليموناضة التي راحت ترتشفها. وعندما وقع ظله على الطاولة رفعت رأسها فرأته ضاحكاً.. قالت تعتذر بخجل:

ـ كان يجب أن أنتظر وصولك. لكنني كنت عطشى.

ارتدت في مقعدها كطفلة صغيرة، فلعقت شفتيها بلسانها الاحمر الصغير ثم قالت تشير الى كوب آخر:

ـ طلبت من الساقي أن يحضر لك كوباً.. ستتمتع به!

ـ لا.. شكراً.. خذي هذه، فهي أفضل ما وجدت.

ورمى الى حجرها كومة قش، وما هي إلا قبعة تقي المرء من حرارة الشمس. حين وضعتها على رأسها تدلى القش فوق وجهها.. فضحكت وسألت:

ـ كيف أبدو؟

رفع عينيه بقنوط ليجيلهما بكل ما حوله:

ـ منسجمة كل الانسجام مع ما يحيط بك.

مالت إليه بطريقتها الطائشة وقالت.

ـ أراك تحاول تعويد نفسك على الظهور علناً. لكنك تتصرف وكأنك تمثل مسرحية متصنعة.

ـ متصنعة؟

ـ أو فلأقل تتصرف بوقار.. فالتصنع والوقار وجه لعملة واحدة.. أنت لا تحب هذا المكان.. صحيح؟

ـ أنا لم أدعِ قط الانجذاب الى الكعك، أو المحلات المبهرجة الخالية من الذوق أو الى المشروبات المسممة.

ونظر بقرف الى كوب الليموناضة وأكمل:

ـ أو الى الاطفال الملوثين حتى الأذنين بالأيس كريم، أو الى أهلهم الصائحين بهم. لكنني على كل الأحوال سأتحمل هذا كله من أجلك هذه المرة.

ـ ولماذا لا تتمتع هذه المرة فقط؟ لِمَ لا تنسى أنك كونت وتتصرف وكأنك شاب عادي لا يتورع عن طلب المرح. فلندعِ أننا التقينا لتونا. غريبان رماهما القدر معاً. وأمامهما كل اليوم ليتعرفا الى بعضهما بعضاً.. لكنك ستضطر للتخلي عن صورتك المنشاة وإلا لن ينجح الأمر! والتخلي عن سترتك، وربطة عنقك لبداية موفقة!

ظنت للحظات أنها ستتلقى صفعة على وقاحتها.. فقد امتزج الفخر مع الاغواء على أساريره، وهو يتردد.. شيء في تعبير وجهها المفعم بالحيوية ساعده على الوصول الى قرار.. فسحب ربطة عنقه ووضعها في جيب سترته ثم خلعها، ورماها على كتفه العريضة وسألها:

ـ أراضية؟

ربتت طرف أنفها باصبعها مفكرة، ثم قطبت:

ـ هناك شيء غلط... حاول أن ترفع كميك الى فوق.

ـ أرفع كميّ..؟

ـ ارفعهما!

أزال على مضض الازرار الفضية التي تحمل شعار اللقب، وأخذ يقلب كمي قميصه الحريري الأزرق الباهظ الثمن حتى مرفقه، وحين تجاوز المرفق، مدت يدها بخجل وفتحت الأزرار الثلاثة العلوية في قميصه. كان التحول مذهلاً. فقد برز عنقه أسمر قاتماً تحت ياقة مفتوحة على مرجة من الشعر الأسود الممتد على صدره العريض، كما تحركت عضلاته المفتولة تحت الحرير، فشكلت جميعها سحراً خاصاً وجعلت منه أكثر شباباً واسترخاء... وحين ضحك اكتمل التحول ذلك أن أسنانه البيضاء تناقضت مع وجهه الأسمر.

ـ أحس وكأنني جندي جرّد من بذلته الرسمية فما عدت واثقاً من نفسي وما عدت قادراً على التصرف. حين أكون مرتدياً بزتي أحس بأنني متمدن.. أما الآن..!

ثم هز كتفيه تاركاً ما تبقى من كلام لمخيلتها.

وابتلعت آخر ما في كوبها من الليموناضة فكادت تختنق.. ماذا فعلت؟ وتمنت بحرارة لو تتعلم التفكير قبل التفوه فهي قد تتدبر أمر الكونت الأنيق.. لكنها لا تعرف كيف تتصرف مع هذه الصورة الخليعة التي رسمتها له بناء على تهور أبله.

* * *

١٠ ـ تريده سيدها

حين انطلقا في نزهتهما، أمسك تيغر بيدها، ولم تمانع. وقد نسيت وهي ترى هذا الجمال المحدق بهما أن الرجل الذي تلتف أصابعه حول أصابعها هو الكونت تيغاروس بيرتاكس.

وبدا أن تيغر قد خلع مع السترة وقاره. فراحت عيناه من وراء نظارة ملونة تضحكان لها، لا بتسامح أبوي.. إنما بابتسامة محددة بطلقها عادة أي رجل منجذب الى فتاة جذابة. فارتفعت روحها بخفة كوقع قدميها وهي تسير الى جانبه، فأشارت الى طير نورس يطير في سماء زرقاء لا غيمة فيها. وتوقفت أمام طفل يبكي لابتعاده عن أبويه.. ثم تمتعت براحة حين هرع أب متلهف ليحتضن الطفل الباكي بين ذراعيه.

ـ لك قلب حساس يا اليكس.. مصلحة الآخرين، من لا تعرفينهم حتى، تعني لك الكثير.. وهذه أخلاق نادرة الوجود في فتاة مثلك تربت فيما يعتبره الناس حضن الفخامة والثراء.. من غرس فيك مثل هذه الفضائل؟ ليس أبوك.. فهو كسائر الرجال من طبقته، يبدو غارقاً في العمل وفي شؤونه بحيث لا يجد وقتاً لشيء آخر.. وساشا تبدو دائماً مهتمة بمصلحتها فقط.

كانا يقفان عند جدار منخفض، يسندان مرافقهما فوقه، ينظران الى عدد من الأشخاص المنتشرين فوق الرمال... ولم يكن على وجهه أثر للقرف المعتاد، وهو يراقب أفراد العائلات يتدفقون للحصول على مشتراتهم. إنه عالم جديد بالنسبة له، وهذا ما أدركته اليكس لكن ذلك الإدراك سبب لها الإشفاق.. وهو آخر شعور قد تربطه بالكونت المتباهي... وسارعت تشرح له:

ـ لقد عانت أمي كثيراً حتى جعلتني أتعاطف مع الآخرين الأقل حظاً منا. وإذا بدا لك هذا تفاخراً، فأنا لم أقصده.. كان لوالدتي طبيعة محبة معطاءة، وكانت ستتصرف بالطريقة ذاتها وإن كنا نعيش في كوخ. فلم يكن للمال والاملاك أهمية عظيمة في نفسها. أذكر أنني سألتها مرة، بكل لهفة الأطفال: ماما... ماذا سيحدث لو خسر بابا ماله؟ ونزع ردها كل خوف الطفولة من ذهني، حين قالت: «الثروة لها أجنحة يا عزيزتي.. أحياناً تطير لكن الأولاد هم ثروة الرجل، فما دام يحب أولاده لن يعرف الفقر أبداً».

شد تيغر على أصابعها:

ـ كم كان عمرك حين ماتت؟

ـ اثنتي عشرة سنة. إنه أسوأ عمر.. وماذا عنك؟ لم اسمعك تتحدث عن أمك. أتجد هذه الذكرى مؤلمة كذلك؟

أذهلتها هزة كتفيه غير المبالية، وأدهشها رده:

ـ لا أذكرها أبداً.. فقد ماتت حين ولادتي.

ـ أوه.. أنا آسفة!

فابتسم وقال مازحاً:

ـ قلبك رقيق.. لماذا الأسف؟ ما هو القول المأثور: «ما لم يكن لك لا يمكنك أن تفتقده»؟

ـ لكن هذا ليس صحيحاً! فلربما حاول والدك، بجهد مضاعف كما فعل والدي، التعويض عليك!

هز رأسه، وترك وحدة نفسه تبرز من خلال شرحه:

ـ ما كنت أشاهد أبي كثيراً، كان يمضي معظم وقته خارج البلاد. ويتركني في عهدة المربيات والمعلمات، وعمتي بالطبع... وحسب قولها.. كان أبي يكرهني، لم يستطع أن يسامحني لأنني سلبت حياة أمي حين ولدت... لكن أعتقد أننا لو أعطينا الفرصة ليتعرف أحدنا على الآخر لاستطعت أن أعوضه عنها ولو بطريقة صغيرة جداً.. لكن هذا ما لم يحدث قط.

أحست بالأسى من هذه المعاملة التي عومل بها طفل فقد أمه.

ـ وهل قالت لك عمتك هذا؟

لا عجب إذن أن الطفل ترعرع وحيداً مستوحشاً حتى أصبح أكثر عزلة. فالإحساس بالذنب كان يتراكم فوق كتفيه. أعطاه الزمن والتقاليد منّة الثقة بالنفس، لكنها تعتقد أنه مايزال يحمل في داخله ذلك الاحساس بالذنب. وذلك الشعور بأن لا حق له بالسعادة.. وتعاظم عطفها عليه، متهوراً كالعادة.. فقالت له بشراسة:

ـ لست أدري كيف تطيق الاستمرار في العيش في منزل

مليء بالذكريات التعيسة! لماذا لا تقفله، وتنسى وجوده.. أو.. إذا كان هذا مستحيلاً.. عوّض عن طفولتك الوحيدة بملء القصر بالأولاد حتى تطرد ضحكاتهم، ووقع أقدامهم الصغيرة، كل أشباح طفولتك!

رمى رأسه الى الوراء وضحك. حتى أن جميع من سمعه ابتسم والتفت إليهما. فرفعت نظرها إليه مذعورة، ثم حبست أنفاسها... فقد كان لمنظر وجهه تجاه السماء الزرقاء سحراً غريباً جذاباً...

أحنى رأسه لينظر الى وجهها الساخط:

ـ آه يا حبيبتي! سأحب هذا كثيراً! في الواقع أنا...

فجأة وهما ينظران الى عيني بعضهما بعضاً، بدا أن كل شيء صامت حولهما.. الامواج ارتطمت بالرمال بصمت.. صراخ الأولاد تلاشى حتى أصبح همساً وصراخ آبائهم أصبح صدى، وصرخات الطيور اختفت.. حين انتزع نظارته، وجدت نفسها تحدق في عينين ما عادتا تبرقان من الضحك.. بل في عينين مظلمتين، تعكسان مشاعر لا قرار لها. وأخذ يردد ببطء:

ـ بيت يعج بالأولاد.. ليت هذا ممكن يا اليكس!.. إنه ممكن، لو أجبرت نفسك على قبولي زوجاً لك.

في تلك اللحظة أدركت أن الطنين في أذنيها كان صوت خفقات قلبها. فعضت شفتها، تتأرجح بين الريبة والتصديق.. لكنها سرعان ما نفضت سحره عنها.. فما يحس به ما هو إلا نزوة ملؤها شوق مؤقت سيمر تاركاً في إثره الاحراج. لو كانت حمقاء لأخذت قوله على محمل الجد.. فالصدق غريب عنه

غرابة الضحك في قصر عائلة بيرتاكس... لذلك فقد بددت سحر تلك اللحظة بإعلان مبتهج:

ـ أنا جائعة.. وأنت؟ فلنجد شيئاً نأكله.

لم تكن ردة فعله الفورية إلا اشتداد قبضته على ذراعها، لكنه سرعان ما وافق على اقتراحها:

ـ لكن.. ألا يمكن أن نأخذ الطعام لنأكله على الشاطىء.

نظرة الارتباك التي ارتسمت على وجهه أكدت لها صدق احساساتها فهو لم يختبر مثل هذه السعادة في طفولته، إذ لم يحدث على ما يبدو أن تناول طعامه على شاطىء. لكنه وافق على مضض:

ـ إذا كان هذا حقاً ما ترغبين فيه.

ـ أوه.. أجل.. أجل. ثمة محلات على جانبي الطريق نستطيع منها شراء الخبز وبعض الجبن.. والكبيس.. إذا كنت تحب الكبيس؟

ـ أحبه...

وبدا مستغرباً اعترافه، فتابعت باثارة ولهفة:

ـ وسيصبح مع قليل من القريدس المطهو رائعاً.

لم يجدا فقط كل ما طلبته، بل اشتريا إضافة الى ما أرادا ثوبي سباحة ومنشفتين كبيرتين وذلك قبل أن ينزلا الى الشاطىء. لكن بعد عشر دقائق من تخطي الأجساد البرونزية تمرد تيغر إذ لم يجدا فسحة يجلسان عليها.

ـ فلنعد الى السيارة.. أعرف شاطئاً قريباً نستطيع فيه الاسترخاء دون أن يطردونا منه وذلك لأن مالكه صديقي.

كان الخليج الصغير لا يبعد أكثر من عشر دقائق... لكن، خيل إليها أنها خطت الى عالم مختلف تماماً حين مشت في الممر المنحدر الذي يفضي الى فسحة رمال لا تحمل أثراً للبشر.. وضعا سلة الطعام تحت شجرة باردة الظلال، ثم ذهبا خلف الصخور فغيرا الثياب التي بدأت تزعجهما في هذا الحر.

أحست اليكس بخطواتها متثاقلة تخشى مما ستبديه نظرة تيغر إليها.. لكن حين برز من وراء الصخور كانت هي من ضحكت على منظره. فقد كان يحدق بقرف الى الشورت الفاقع الألوان، المؤذي للنظر. كتمت ضحكة، لم يظهر من أثرها إلا اهتزاز كتفيها لكن لم تلبث أن تسللت من بين شفتين مضغوطتين لتدوي قهقهة مرتفعة، وصل صداها الى شواطىء الكازينو... وتقدم منها متهماً:

ـ كان عليّ ألا أسمح لك بشراء شيء لي! لقد اخترت هذا الثوب المقرف متعمدة..

أمسكت بجنبيها لتتمالك موجة يائسة من الضحك. وقالت:

ـ أخشى أن تكون على حق... فثوبي كان أفضل الأسوأ. لذلك فتشت لك عن شيء شبيه لئلا تضحك عليّ!

دفعتها غريزتها الى الهرب حتى قبل أن يخطو نحوها... فركضت مسافة نحو الماء أبقتها بعيدة قليلاً عن يديه الممدودتين.. وقفزت الى الماء وكأنها تحاول الهرب من سمكة قرش. لكن ما هي إلا ثوان حتى تغلب عليها، فأمسك بها من خصرها، ثم شدها من غير رحمة الى الماء، قاطعاً عنها بذلك أنفاسها. تمسكت يائسة بكتفيه وكأنهما صخرة الخلاص،

وتوسلت إليه شاهقة بأنفاس قصيرة:

ـ أرجوك تيغر.. لا تفعل هذا! أنا آسفة.. حقاً آسفة!

وضحكت ثم أردفت:

ـ أرجوك لا تغرقني بعد.. أرجوك!

ـ أنت فاسدة.

لم تسمع مثل هذه الكلمة تخرج من فم أي انسان بهذا الحنان.. فجمدت ضمن دائرة ذراعيه.. اللتين اشتدتا عليها بعناق عاصف حميم. بعد دقائق كان كل ما تراه منه رأسه الأسود يلوح فوق الامواج وهو يوجه قوته كلها ويرفع نفسه من تحت الماء.

كانت تتمدد على منشفتها حين خرج من الماء. رمى بنفسه فوق منشفته التي فرشتها له فوق الرمال على بعد حذر منها. ثم سألته بأدب:

ـ أنا جائعة.. أتسمح بأن نأكل؟

أحضرت السلة من تحت الشجرة، ثم راحت تتجنب نظرته أثناء تناولهما الخبز والجبن، والقريدس والفاكهة.. أما هو ففتح زجاجتين من المرطبات، صبهما في أكواب بلاستيكية وحين اكتفيا، انقلبا معاً على ظهريهما بكسل، يحيط بهما جو صامت، وإحساس بالصحبة.. وناما كطفلين مادين أذرعهما، أصابعهما.. تقريباً.. تقفل المسافة القصيرة بين منشفتيهما فوق الرمال.

بعد عشر دقائق من النعمة.. استيقظت اليكس من غفوتها.. وتحركت، لكنها أحست بالارتباك لأن تيغر تحرك

وأمسك بمعصمها. فنظرت إليه، تتساءل عما إذا كان يتظاهر بالنوم. لكنها أحست بأن كل أسلحتها جردت وهي ترى طيف ابتسامة على فمه. بدا لها في نومه بلا حول أو قوة، فرأت في مظهره هذا آثار الطفل الذي كان ينام يوماً والدموع على خديه، كم من مرة انخفضت هذه الأهداب لتخفي الدموع عن عيني كونت المستقبل.. وكم من مرة ارتجف قلبه ألماً مما كانت توقعه به عمته الفاقدة الرحمة.. وكم من مرة توتر جسده النحيل ليكبت اندفاعاً يحثه على الهرب الى الوالد الذي كان يرفضه، الى الوالد الذي كان ينشد عنده الراحة وبعض الحب الذي حرم منهما.

وقفز قلبها ألماً.. يبدو أن قدره ألا يتمتع بعلاقة حب حتى من زوجته.. فقد اختارها لأسباب مالية لا عاطفية.

ردتها الى الواقع نظرة استقرت عليها فتدفق احمرار الاحراج الى وجهها. كم مضى عليه من وقت وهو مستيقظ.. فهو دون شك قادر على أن يقرأ أفكارها!

وزادت كلماته من قناعتها بنظريتها، إذ قال:

ـ اليوم وبطريقة غريبة تبدين مختلفة. تصرفاتك أكثر لطفاً وأقل تحفظاً وكلماتك تعبر عن السعادة بدلاً من الحمم التي كنت توجهينها إلي من خلال تفكير كثير الشك. أنت جميلة دائماً يا اليكس.. لكن في وجهك اليوم اشراقة خاصة.. اليوم يوم رائع.. أليس كذلك يا حبيبتي!

أحست أنها دون أعصاب، هشّة كطفل يعتمد كل الاعتماد على ما يريده مربيه. وجدت أن الكلام مستحيل، فتوسلت إليه

بعينيها.. ترجوه بصمت أن يكون لطيفاً.. في تلك اللحظات كانت مستعدة كل الاستعداد للاستسلام إليه.. حتى يحبها.. ويصبح سيدها..!

وهبط ظله فوقها، فأحست بالسعادة لأن ظله كان عباءة تختبىء تحتها في لحظات عذاب الانتظار.. كان فمها يرتجف تتوقع أن يقبلها.. لكنه أطلق لعنة حادة وحشية وابتعد عنها.. وعندما زال ظله أبهرتها أشعة الشمس، فانتفضت منها وارتدت الى جنبها. تقاوم اندفاعاً الى البكاء بعد أن اجتاحتها موجة من الذل.

ـ تعالي.. حان لنا أن نذهب.

كانت لمسته باردة وهو يساعدها على الوقوف. لكنها أشاحت بوجهها عنه . لأنها لم تسيطر بعد تماماً على نفسها لتخفي عذاب الرفض.

كرهت ثبات صوته حين قال لها:

ـ فلنعد الآن الى الڤيلا. لا أجد سبباً يمنعني من إطالة هذا اليوم الرائع.. لكننا سنعود ليلاً لزيارة الكازينو.. أتحبين هذا؟

ها قد عاد الى تسامحه الأبوي.. الذي تكرهه! فأجابت:

ـ أهذه معاملة خاصة لطفلة ليس لديها تجربة؟ أم اعتذار عن النفاق؟ حسناً دعنا نتمتع بما سيقدمه لنا الكازينو.

لقد اختبر مشاعرها وعواطفها، ثم أظهر قلة حماسة بشكل مذلّ، لربما رأى أنها غير قادرة على الوصول الى مصاف شبح ماضيه جانيت.. كان رفضه لها صعباً، شديداً على نفسها..

لكن الحياة دروس كلها، وما جرى الآن لقنّها درساً مهما.. وهو ألا تعتقد يوماً أنه صادق.

* * *

١١ ـ بين دفتي الجحيم

مضى تيغر، أمام خيبة أمل الخادمة ماريكا، يقلب طعامه عند العشاء بنكد. فقد أملت أن يحمل معه هذا المساء تغييراً ما في تصرف العروسين حتى يبدأ شهر عسلهما الفعلي.

أشار برأسه إليها، فسارعت الى سحب الطبق من أمامه ثم سألت بنزق:

ـ هل أقدم الحلوى سيدي؟

ـ عفواً.. أوه.. لا.. لا أريد شيئاً شكراً لك ماريكا..

ثم وكأنه تذكر أنه ما عاد وحيداً، فأضاف:

ـ ماذا عنك اليكس.. هل تريدين تذوق ما تصنعه ماريكا من لذيذ الأطعمة؟

شمخت ماريكا بأنفها غروراً.. لكنها لم تلن أمام مظهر الكونتيسة الشاحب، ووجهها التعس... فمن وجهة نظرها أن الكونتيسة خرجت في أيام من طور الطفولة الى طور النضوج، من برعم منغلق الى زهرة متفتحة تنتظر من يقطفها.. إلا أن الكونت، كما يبدو، لا يلاحظ هذا... أهو أعمى؟ أم أنه لا يرغب في الرؤية؟

ابتسمت اليكس معتذرة للخادمة المنتظرة بقلق.

ـ آسفة.. أنا واثقة أن الحلوى التي حضّرتها رائعة يا ماريكا.. لكنني لا أستطيع تناول لقمة أخرى.

وقال بأدب دون أن يعبأ بزوجته التي فقدت شهيتها.

ـ بما أننا اكتفينا فلنذهب.

تمتمت ماريكا وهي تراقبهما يصعدان الى السيارة:

ـ اكتفينا!.. المكتفيان لا يحبان... إنهما ينفضان السأم عن نفسيهما!

لكن السأم لا مكان له في علاقة كعلاقتهما.. فالتوتر بينهما ملموس تقريباً.. وكأنهما معاً يخوضان في محيط لا قرار له! لكن السؤال الذي طرحته اليكس على نفسها بحدة كان: لماذا أشعر بهذا الألم؟ لماذا يزعجني ألا يراني جذابة؟ ولِمَ الاهتمام؟ مادمت سأتركه في أول فرصة تتاح لي.

تذكرت اليكس مرة، أنها في طفولتها تشاجرت مع ابنة عم لها بصدد لعبة انتزعتها منها الفتاة.. فقالت الأم ببرود:

ـ أخشى أن تكون اليكسندرا مدللة قليلاً.. فهي تشتهي كل ما تحرم منه!

أيكون استنتاج تلك العمة صحيحاً؟ حين حاول تيغر أن يضع علاقتهما على سكة حميمة، قاومته بازدراء.. فهل تشتهي الآن تلك اللعبة التي حرمت منها، أترغب في اهتمامه لأنه صدّها؟

حين تجاوزت السيارة الكازينو، التفتت نحو المبنى الذي يضج بالمرح.. فقال وكأنه يرد على سؤالها:

ـ الوقت مبكر قليلاً... إن غرف الالعاب مفتوحة، لكن

الأجواء غير مناسبة الآن. ثمة نادٍ ليلي غير بعيد عن هنا، فيه استعراض جيد.. سنقضي ساعة أو ساعتين فيه قبل أن نعود الى الكازينو.. ما رأيك؟

تمتمت وقلبها يخفق:

ـ أقبل بكل قرار تتخذه.

ثم التزمت الصمت، تخوض حرباً داخلية ضد مشاعر معقدة لم تستطع منعها.

ـ ما رأيك بالمكان؟

ـ رائع!

وأسندت جسمها الى الكرسي ثم راحت تحرك أصابع قدميها، تهيىء نفسها للتمتع بمعزوفات الفرقة الموسيقية التي توشك على العزف...

كانت الموسيقى التي صدرت أخيراً عنها تنسجم مع جو الملهى الحميم.

ـ أترغبين في الرقص؟

فاجأتها دعوته لكنها قبلتها بلهفة:

ـ أجل.. أرجوك.. أحب الرقص!

بينما كانت تتسلل الى ذراعيه، تذكرت نصيحة جدتها.. «كوني صادقة مع نفسك كما أنت صادقة مع الآخرين». لكن، صعُب عليها أن تعترف بأن كل ما تريده هو أن تحس بذراعيه حولها. وأن تضع يديها على منكبيه العريضين.. وأن تريح رأسها على قلبه، لترشف من رحيق قوته الدافئة...

كانت بادىء الأمر متحفظة، لكن مع مرور الوقت، اشتداد

الزحام في الحلبة اضطر الى شد ذراعه حول جسدها وأحست تدريجياً بعضلاته المتشنجة تسترخي تحت أصابعها على وقع الموسيقى الحلوة، وفي الجو الممتع، يشجعه على هذا تصرف الفتاة الراضية بين ذراعيه.. همس لها في أذنها:

ـ أيتها المجنونة المبكرة النضوج.. لماذا قررت فجأة أن تتباهي بأنوثتك وأن تعرضي سحرك أمام الزوج السريع التأثر؟ احذرك اليكس.. أنت تتصرفين بغير حكمة.. إلا إذا...

وترك السؤال معلقاً، فدار رأسها في موقعه ذلك أن أكثر ما ترغب فيه الآن من الدنيا هو اختبار ردة فعله إزاء السر الذي بدأت الآن فقط بالجرأة على التفكير فيه.. كل المعرفة التي عرفتها اليوم كانت تدق باب أفكارها تطلب منها الاعتراف... لكنها رفضت السماح لها بالمرور. أما الآن.. وبعد احساسها بالراحة، واجهت الحقيقة الكامنة وراء الرسائل التي كانت تنتقل منذ أيام من داخل قلب خافق، وأعصاب متوترة، وشوق معذب مجهول الاسم. لكنها عرفت الآن أن اسمه.. الحب. إنه احساس عظيم مثير، قوي الى درجة تجعله يتغلب على الكبرياء والشك وعلى الإذلال الذي أحست به بعد أن ظهر اليوم على الشاطىء.

وأحست بشفتيه تلمسان شرياناً ينبض بقوة فوق صدغها، وسألها مجدداً:

ـ حسناً.. اليكس؟ ما قولك؟

انفجرت أحاسيسها فبدأت ترتجف.. كانت عزلتهما بين الجمع المترنح الراقص، بالنسبة لها كاملة حتى استطاعت أن

تضغط خدها المحترق على صدره متمتمة:

ـ تيغر.. لقد حدث لي شيء غريب... ويجب أن أعترف لك.. الآن...

كان نفاذ بصيرته، وسرعة ادراكه حساسين جداً ذلك أنه أدرك ما توصلت إليه، فجذبها إليه وقال يحثها:

ـ يجب أن أعرف.. يا عزيزتي.. قولي لي!

في هذه اللحظة بالذات انقطعت الموسيقى، ودوّى صوت قطع انسجامهما، فأعادهما الى أرض الواقع فإذا هما آخر زوجين على الحلبة.. ابتعدا على مضض لكنه ترك يدها في يده وقادها الى طاولتهما... وخلال الوقت الذي قضاه الساقي في تقديم الشراب، لم تغادر عيناه وجهها... وجهاً أصبح أجمل، تضيئه عيناها، وارتجاف شفتيها، وتضرّج وجنتيها.

حين تركهما الساقي.. أخبرتها شرارة في عينيه أن صبره قد نفذ. فتنفست عميقاً:

ـ تيغر.. أنا...

قاطعها صوت نسائي مثير، له تأثيره القوي على الأعصاب:

ـ تيغر..! يا عزيزي! لم أستطع تصديق عيني حين رأيتك تترك حلبة الرقص!

وحلّ صمت رهيب بينهما، يطلب ردة فعل. لكن تيغر راح يشتم شتائم لم تسمعها إلا اليكس ولم يلبث أن جرّ نفسه ليقف ملقياً تحية مؤدبة على الدخيلة غير المرحب بها:

ـ مساء الخير جانيت.. لعلك بخير؟

إذن هذه هي جانيت!

ـ أين كنت طوال الاسابيع الأخيرة؟

توترت أعصاب اليكس. فلم يكن سؤالاً عابراً، بل سؤالاً يطلب تبريراً لغيابه.

أحنى تيغر رأسه بتجاهل وصل الى حد الفظاظة. كان من قاطعهما امرأة يرافقها رجل.

ـ ربما التعارف سيفسر الأمر لك اليكسندرا.. أود تقديم اثنين من أقدم أصدقائي الآنسة جانيت غراندیس وشقيقها فيليبي.

لم تعر جانيت التفاتاً لاليكس.. لكن شقيقها بدا مهتماً.. فقد لمعت عيناه إعجاباً وفغر فمه دهشة.. لكن تيغر أتمّ التعارف:

ـ جانيت، فيليبي، أقدم لكما الكونتيسة اليكسندرا بيرتاكس زوجتي.

احتاجت جانيت الى كل ما أوتيت من رباطة جأش لتكيف نفسها مع الصفعة التي وجهها إليها تيغر، فركزت عيناها لحظات على اليكس والكراهية تطل منهما، ثم انتقلتا الى تيغر، تفتشان في تعبيره الجامد عن دليل مزاح. وقالت مختنقة:

ـ أنت مازح كبير تيغر.. أليست هذه مزحة؟

حرّك فيليبي الذي يشبه أخته الى حد كبير قدميه وضحك، مقترحاً بتردد:

ـ هل لنا أن نجلس؟ يبدو أننا نجتذب اهتمام الناس.

نظرت اليكس الى ما حولها فوجدته على حق.. إذ كانت

كل العيون منصبة عليهما. فتيغر وجانيت معروفان دون شك لزبائن النادي... خلال الدقائق التي أحضر فيها السقاة المقاعد، استطاعت جانيت لجم انفعالها عن وجهها، دون عينيها.

قصدت جانيت من أول جملة فاهت بها إثارة الازعاج، فقد ركزت نظرة غاضبة على تيغر وقالت:

ـ بما إنك لم تنكر أعتقد أن ما قلته صحيحاً. لكن لِمَ هذه السرية عزيزي؟ ألم نتفق خلال علاقتنا الطويلة السعيدة على ألا يكون بين أي طرف منا التزام؟ وأعتقد أن صديقين قديمين مثلنا كانا يستحقان دعوة لحضور حفلة زفافك؟ أم خفت أن أختلق لك فضيحة، أو أن أحاول اقناعك بتغيير رأيك؟ وأنت تعلم أن لي قدرة هائلة على الاقناع. فهل خفت أن أقنعك؟

هبط قلب اليكس كحجر ثقيل، ففي جمل قليلة، رسمت جانيت لوحة عن علاقة حميمة. إنها ليست ساذجة حتى تتصور أن تيغر كان أعزب متزمتاً. فما من رجل جذاب قد يبلغ هذا العمر دون أن يكون له علاقة.. لكن كان عليه أن يكون لائقاً شريفاً، ويخلص نفسه منها قبل أن يتزوج!

اختفت شهقة فيليبي المدعية، مع ألحان الموسيقى التي عادت الفرقة الى عزفها. لكن رد تيغر الحاد لم يختف، فقد مال الى جانيت يربت يدها ويقول بلهجة فيها تأنيب ومزاح:

ـ هيا الآن جانيت.. ما هذه الدراما..! فأنا وفيليبي نعرف تماماً مدى ميلك الى افتعال الضجيج الكبير بشأن لا شيء.. لكن زوجتي الشابة لا تعرف هذا. انظري كيف صدمتها.. بما

أنها مازالت طفلة، فقد فهمت من تلميحاتك أسوأ ما يمكن من تفسيرات، وأما بالنسبة للدعوة، فقد كنت سأرسل لك دعوة لولا وجودك في أثينا أثناء إقامة مراسم الزفاف.

هزت جانيت كتفيها عن غير اكتراث، فقد اكتفت من اطلاق التهم، ثم ابتسمت معتذرة، واستقرت في مقعدها:

ـ سأسامحك هذه المرة... يا عزيزي تيغر.. لكنني سأتوقع اعلاماً مسبقاً بكل حدث جديد.

قاومت اليكس لتستجمع ما تبقى من كبريائها المشتتة وقالت:

ـ تصدع زواجي مثلاً؟

يا لحماقتها! يجب أن تشعر بالامتنان لأن جانيت حالت بينها وبين الالتزام الفعلي الغبي.. أكانت حقاً مستعدة على الاعتراف بحبها له؟

لم يكن لعرفان الجميل، الذي قدمه فيليبي بالطلب منها مراقصتها حدود. فقد قبلت دعوته دون تردد ووقفت شامخة الرأس تتحدى نظرة تيغر.

أحست بالرّاحة لأن فيليبي لم يحاول محادثتها في بداية الرقص، بل أمهلها بعض الوقت لتتماسك، وحين تكلم أخيراً استطاعت فعلاً أن تعطيه كامل اهتمامها.

ـ كنت وشقيقتي صديقين لتيغر منذ الطفولة وكانت عائلتانا مقربتين دائماً ذلك أن والدينا وجدينا كانوا شركاء عمل. كانت العائلتان تتبادلان الزيارات دائماً. ولهذا نعتبر قصر بيرتاكس بيتاً ثانياً لنا.

قالت بلطف:

ـ أرجوك لا تحاول الدفاع عن تيغر.. فلا حاجة لذلك حقاً.

بدت الدهشة عليه:

ـ لا حاجة لذلك؟

ـ أبداً.. فما زواجنا إلا تمثيلية.. إنها قصة طويلة لن أضجرك بها، لكن تأكد يا سيد، أن تلميحات أختك لم تحزني بل وجدتها لا تستحق الاهتمام.

أحس بأن هناك خطأ ما، في مكان ما. لكنه ليس قادراً بعد على تحديد هويته. لكن لزوجة تيغر ميزة خاصة وسيكون من المثير للاهتمام أن يكتشف ما إذا كانت باردة كلها أم ما يظهر منها فقط. وكررت الفرقة النغم النهائي مرة.. مرتين.. ثلاثاً، وشهق الراقصون محتجين ضاحكين... فتابعت الفرقة نغماً ناعماً رومانسياً.

حاولت اليكس أن تترك الرقص.. لكن فيليبي منعها ممسكاً بمرفقها، وجرّها الى ذراعيه ثانية، قائلاً بخبث:

ـ لقد لمحت الى أن مشاعر تيغر لا تهمك. لكن بما أنني أعرفه أكثر منك وأعرف مدى تملكه، فسنقوم بالطريقة المثلى لنعاقبه! إن عبثنا قليلاً غضب تيغر..

كان الاغواء قوياً، فوافقت متهورة:

ـ حسناً.. فليكن ذلك!

لكنها بهذا أثبتت لفيليبي كذبها.. فلو لم تكن تعبأ به لما

قبلت أن تغيظه.. إنها تحاول حتى خداع نفسها بادعاء عدم الاكتراث.. وكبت فيليبي بسمة سرية، نعم هو لا يهتم كثيراً بأخته، لكنه يقدّر صداقة تيغر.. وهي صداقة يوشك أن يضعها على المحك!

اطلقت اليكس فكرة أن يرافقهما جانيت وفيليبي الى الكازينو. وأظهرت جانيت البهجة، وكذلك فيليبي. كان عبثه واليكس يسير على ما يرام، وكان يضغط به على اليكس في كل مناسبة، لكن العامل الذي أثار خيبة الأمل هو تصرفات تيغر، فبدلاً من أن يغار من فيليبي، تبنى موقف المراقب، الذي ترفه عنه جانيت ذات الخبرة في التعامل مع الرجال. وأحست اليكس بقلة اهتمامه، مما زادها تهوراً. كانت تعلم أن تصرفها سيء، لكن يأسها جعلها غير مهتمة.

وأمسك تيغر بيدها مرة وقال بلطف:

ـ أنت تجعلين نفسك أضحوكة عزيزتي.. أفهم لماذا تفضلين صحبة فيليبي.. لكن أيجب أن تظهري سعادتك على هذا النحو؟

فالتفتت إليه تقول متسعة العينين تدعي البراءة:

ـ أنا أقدم لك معروفاً بجعله مشغولاً عنكما. إذ يبدو أن لديك ما تريد أن تتحدث به مع شقيقته!

ـ بالعكس تماماً.. نحن لا نكاد نتحدث، إننا نخوض غمار أمور قديمة.

ـ لكن هذا أفضل! أنت محظوظ لأن لك صديقة تعرفك الى

درجة يغدو الحديث بينكما غير ضروري. فقد يُعبر عن أمور كثيرة في صمت حميم!

* * *

١٢ ـ أنياب من حرير

كان جو الكازينو عاصفاً، مثيراً، ومكتظاً بحيث كان من السهل على اليكس وفيليبي الاختفاء عن عمد. زودها بكومة من «الفيش» ثم راح يدور بها من طاولة الى أخرى. يشرح لها تعقيدات كل لعبة. لكن، بما أنها كانت في مزاج متكدر فقد وجدت المغامرة حدث جديد له سحر مثير راح ينمو في نفسها كما ينمو «الفيش» أمامها على الطاولة ويتراكم.

قال لها فيليبي معلقاً على الربح:

ـ إنه حظ المبتدىء!

فقد فاز رقمها مرة تلو الأخرى وتراكم «الفيش» أمامها.. لذلك كرهت أن تتوقف عن اللعب، لكنها أذعنت حين نظر فيليبي الى ساعته قائلاً:

ـ إنها الثانية ليلاً يا اليكس، أعتقد أن من الخير لنا أن نبحث عن الآخرين..

ـ أنت على حق، هل لك أن تصرف هذا «الفيش» فيما أنا أحضر معطفي؟ سألقاك في البهو بعد خمس دقائق.

تأخر فيليبي بالعودة.. وبما أن مرافقها لم يأتِ بعد راحت اليكس تجوب البهو مضطربة. ثم لاحظت أشجار نخيل أمامها،

فاتجهت إليها آملة أن تختبىء من العيون الفضولية التي ترمقها... كانت الأصوات تدمدم حولها، لكن حين وقفت تحت أغصان النخيل الضخمة المروحية ما عادت تسمع سوى صوت واحد خفي على ما عداه.. لكنها سرعان ما تبين لها أن جانيت وتيغر يجلسان خلف امتداد أخضر.. فارتدت، تكتم أنفاسها، وتريثت حتى سمعت رد تيغر على سؤال وجهته له جانيت:

ـ لماذا تزوجتها يا تيغر؟ إنها ليست من موطنك، ولا من ثقافتك.. بل إن كل شيء فيها متناقض كل التناقض مع ما اعتدت عليه من النساء.

ـ ربما هذا هو السبب.

ـ أوه.. هيا الآن تيغر.. لا تكن مراوغاً.. أليس من حقي أن أعرف؟ كنت تتهرب منذ سنوات من موضوع الزواج، وتجنبته بلباقة تثير الاعجاب، غير متأثر بإغراءات النسوة اللاتي رغبن في أن يصبحن الكونتيسة. وكان أمامك نساء لا يحصى عددهن، أنيقات، مثقفات، ومنطلقات، لكن جاءت هذه الاميركية، التي لا أرى فيها شيئاً إلا بهاء الطلعة وبعض التصرف الساذج.. فتزوجتها فوراً.

تسمرت اليكس في أرضها لا تستطيع الحراك، وسمعته يرد:

ـ أنت امرأة منطلقة جانيت. ولقد تزوجت اليكسندرا لسبب واضح جداً، لا حاجة بي الى ذكره، لأنه واضح.

أوشكت اليكس على الصراخ لأن صبرها نفذ من الصمت

الطويل الذي عقب قوله، حتى ظنت أنهما ابتعدا. وكانت على وشك اشراف النظر من وراء الاشجار، حين قالت جانيت:

ـ أحسدك عزيزي.. وأتمنى لو يكون لي حظك السعيد! قريباً، سأكون مضطرة للزواج. فأنا وفيليبي متهوران جداً.. وهذا مرده الى تربيتنا. فقد ترعرعنا ونحن نعتقد أننا أثرياء، كانت طفولتنا طفولة ولدين ينعمان بالثراء تحت ظل عائلة ذات مركز رفيع، وما علمنا إلا بعد موت والدنا أن المال قليل وأنه يجب علينا إذا أردنا الحفاظ على مستوى معيشتنا الذي اعتدنا عليه أن نعتمد على ما نملكه من أشياء ثمينة.

ضحكت بقساوة:

ـ لكنها ليست كثيرة، لأنها لا تتعدى المظهر الجميل والقدرة على ارتداء أفخر الثياب ومعرفة الناس المناسبين، والتحرك في الوسط الملائم، إن هذه مواهب جميعها أهلتنا للوصول الى هدف واحد هو الزواج من ثري.. منذ أسابيع، عندما كنا نزور أثينا كاد فيليبي ينقذنا من الافلاس... فقد أغرمت به ابنة صناعي انكليزي، نزلت في الفندق ذاته.. وقد بدا أن كل شيء يسير على ما يرام حتى نزلنا صباح ذات يوم لتناول الفطور فاكتشفنا أنها ووالدها غادرا الفندق فجأة في الليلة السابقة، دون أن يتركا عنواناً أو كلمة وداعية. لذلك بقي الأمر الآن بين يدي... فهذا الألماس الذي ارتديه هو كل ما تبقى من ثروة العائلة. سنبيعه لنقوم برحلة بحرية، على أمل أن أكسب زوجاً ثرياً. فتمنّ لي الحظ، تيغر. تمنّ لي الحظ الذي كان لك.

أحسّت باشمئزاز كاد يجعلها تتقيأ. فارتدّت متعثرة الى غرفة زينة النساء التي وجدتها فارغة، فاسندت رأسها الى الباب ترتجف قرفاً... إن اليونانيين مشهورين بمظاهرهم الخداعة إلا أن أحقر المرتزقة لا يقارن بتيغاروس بيرتاكس وصديقته!

مضت مدة طويلة قبل أن تتمكن من استعادة رباطة جأشها، للعودة الى البهو. بعد لحظات ظهر فيليبي وهي تكاد تنادي سيارة أجرة تنقلها بعيداً عن تيغر.. فهي تحس أنها لن تطيق رؤيته أو التحدث إليه. تعلم أنه تزوجها لمالها. لكنها ما ظنته يبحث الأمر بصراحة مع جانيت، مهنئاً نفسه على حظه الطيب.

رد فيليبي نظرتها الضائعة الى تعبها، وقال بقلق:

ـ أنا آسف اليكس.. كان هناك صف طويل يطلب صرف «الفيش» وكان الإجراء بطيئاً! دعيني أساعدك في ارتداء معطفك. لا بد أن الآخرين بعيدين عنا.. أوه.. ها هما..

كرهت اليكس قلق تيغر الزائف حين قال:

ـ يا الله ما بالك يا فتاة؟ تبدين مرهقة! كلما أسرعت الى الفراش كلما كان ذلك أفضل لك.

أحست وهما في الطريق الى الڤيلا بنظراته القلقة لكن حين توقف أمام الڤيلا، نزلت من السيارة وأسرعت الى الداخل متجاهلة سؤاله:

ـ اليكس.. ما الخطب؟

لحق بها، لكنها لم ترد عليه بل دخلت غرفتها، فحاول فتح الباب عليها فإذا هو موصد:

ـ اليكس.. دعيني أدخل! فأنا أصرّ على معرفة ما أزعجك!

وقفت قرب النافذة محطمة الأعصاب تركز بصرها على القمر الأصفر الكبير.. لن تبكي. كبحت دموعها. لكنها لم تلبث أن أغمضت عينيها فقد بدأ القمر يغيب وراء ستار من الدموع.

جاءها صوت تيغر هادئاً بشكل خطير:

ـ اليكس! أنا أنوي الدخول.. فهل أكسر الباب؟

ـ لا! دعني وشأني، ألا يمكنك هذا؟ أرجوك، دعني بسلام...

ربما لاقت توسلاتها الأثر المطلوب، فقد سمعت وقع خطواته ثم الصمت.. فجأة دوى صوت ارتطام كتفه بألواح الباب، وتهاوى القفل تحت ضغط جسده، وانفتح الباب.. فدخل الغرفة بهدوء.. سحب نفساً عميقاً ثم قال بصوت غير غاضب:

ـ ما كان ما فعلته ضرورياً لو... والآن.. قولي لي لماذا تتصرفين كطفل حردان.

ـ كنت طفلة.. ساذجة بريئة بسيطة.. لكنني هذا المساء كبرت!.. أليس من حقي أن أشعر بالسخط.. خاصة بعد ما أوضحته لي في حديثك مع جانيت؟ لقد رضيت بأنك تزوجتني لمالي، لكني لم أستطع احتمال تفاخرك وتباهيك أمام الآخرين بحظك الطيب.

وضع يداً ثقيلة على كتفها:

ـ ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدثين.. فالى ماذا تلمحين بالضبط؟ فلا أذكر أنني قلت لها شيئاً يزعجك. كانت جانيت

منزعجة لأن السنوات الأخيرة كانت شديدة عليها، فمشاكلها كثيرة...

ـ والمشكلة الرئيسية هي كيف تستطيع أن تحذو حذوك وتجد لنفسها عريساً ثرياً..!

ـ آه.. فهمت لقد سألتني جانيت لماذا تزوجتك، ويبدو أنك تحت تأثير وهم محدد، أخذت إجابتي على غير محملها. ثمة ما كان يجب أن يقال لك قبل الآن... وهي معلومات، قد يعدّها بعضهم غروراً من جهتي. كنت قد أخفيتها عنك، لكنني أظن أن الوقت قد أزف لأطلعك عليها.

ـ أكاذيب أخرى؟ لا شكراً لك. لقد سمعت ما فيه الكفاية!

قطب جبينه متردداً... يبحث في وجهها عن لمحة رقة، لكنه لم يجد سوى ذقن شامخ بكبرياء، وفم متشدد بعناد، وعينين خضراوين مبللتين بالدموع... فاسودّ وجهه بخيبة الامل...

عرفت أنه يعاملها معاملة الاطفال حين أمسك بيدها قائلاً بهدوء:

ـ فلنجلس ولنتحدث يا اليكس.

كرهته لأنه قادر على أن يظهرها طفلة، فصاحت به:

ـ ليس بيننا ما نتحدث عنه!

وتركته قاصدة النافذة، لكنها أحست أنه بلحظات أصبح خلفها. كان قريباً منها حتى كاد يلمسها ومع ذلك فقد قاوم الاغراء.. وخاطبها بهدوء:

ـ كيف لنا أن نصل الى تفاهم إذا لم نتكلم؟ من الخطأ ترك

الكثير معلق هكذا بيننا. أحياناً.. كنت آمل أن نتحرك نحو تفاهم أعمق.. منذ ساعات فقط كنا نغوص في أعماق اكتشاف ما في أفكارنا. نختبر روح المرح في كل منا.. فهل تنكرين ذلك يا اليكس، أتنكرين أنك في لحظات ما خلال اليوم نسيت قسمك يوم الزفاف على كرهي كما نسيت أنني الرجل الذي اضطررت الى الزواج به؟

ـ أتجرؤ على التلميح بأنني لم أكن مضطرة الى الزواج بك؟ هل ظننت بغباء أن هناك في أعماقي مشاعر لا أستطيع معرفتها، كما ظننت جدتي؟ إذا كان الأمر هكذا فأنت لا تعرف عني شيئاً! دعني أذكرّك بأنني حتى لحظة زواجنا كنت في طريقي الى أن أصبح طبيبة، وأنني لسنوات امتزجت مع الجنس الآخر في جو حر، كنت أتنافس فيه مع الرجال بموضوعات متعددة منها على الأخص الجنس وهذا النقاش طبيعي بين الرجل والمرأة الحرة التي هي تساويه في الحقوق والواجبات. فلو كنت أحبك لاعترفت بحبي دون تردد.

ـ أنت تخلطين الأولاد بالرجال، لقد علمتني خبرتي أن نضوج الطلبة في الجامعات يكون بطيئاً خلال سنوات الدراسة. فهم يملكون أرواحاً شابة ثائرة لكنهم مع ذلك يبقون تحت جناح آبائهم. أما نظامكم الاجتماعي الحر الذي يؤمن للطلبة التعليم والمنح والمساعدات فيجعلهم يجتازون صعوبات الحياة من دون ألم.. فهو يجعلهم كسالى مترددين غير قادرين على مكافحة الصعوبات دون دعم. إن هؤلاء الأولاد الذين تخلطين بينهم وبين الرجال كانوا دون شك يعاملونك بطريقة تخلو من

التمييز الجنسي... أنت بالنسبة لهم كنت متساوية، رفيقة جيدة.. لا تطلبين منهم أكثر مما هم مستعدون لتقديمه... فأنسوك أنوثتك يا اليكس! مثل هذا الوضع لا يظهر في بلادي التي يرمى فيها الصبي الى الحياة الصعبة، ليخرج منها رجلاً مليئاً بالتوق الى السيادة، والى حماية الآخرين والى أهم من ذلك الى أن يحب المرأة التي يختارها زوجة له...

فجأة قصّر المسافة التي بينهما حتى استطاع أن يهمس في أذنها:

ـ لا تخافي من النمر عزيزتي.. لديه أكثر بكثير مما يستطيع جرو صغير أن يقدمه!

سمّرها قوله.. فالتقطت نفساً حاداً وكادت تميل الى الخلف لتتكىء على كتفه، لكن صورة جانيت لمعت أمام عينيها، فقالت له بمرارة:

ـ أحسنت فعلاً عندما شبهت نفسك بوحش الغابة.. فكل ما فيه من صفات موجودة فيك.. المكر، القوة، والفقدان الكامل للعطف على من هم أقل قساوة.

ـ لكنك لم تفكري على هذا النحو بعد ظهر اليوم. ولا هذا المساء حين ارتجف فمك وهو يهمس بالسرّ الذي رغبت في أن أشاركك إياه. الى ماذا كنت تتوقين للبوح يا اليكس؟ هل بدأت أخيراً تعرفين... الحب؟

التفتت تواجهه عيناها الخضراوين اللتان نفثتا سم الغضب:

ـ مخيلتك خصبة تتفق مع غرورك فقط..! فأنا على الأقل، يجب أن أحترم وأُعجب بالرجل الذي سأحبه!

أحست بالدموع تقفز من وراء عينيها فأدارت وجهها بسرعة، لكنه لمح لمعان الدموع تحت ضوء القمر، فارتفعت يده وأمسك بذقنها. فلاحظ بحزن تكدرها الشديد.

ـ إذا كان اعترافي يرضيك فسأبوح لك بأنك عذبتني اليوم عذاباً لا يطاق وقد بقيت، دون انقطاع، أذكر نفسي بأنك بحاجة الى الوقت، وبأن عليّ ألا أستعجلك، لكن للصبر حدود وقد كاد صبري ينفذ. أنت صغيرة.. وبريئة، لكنك زوجتي ولا أريد الانتظار الى الأبد.. لقد حاولت.. والله يعلم كم حاولت!

فجأة تلاشى كل غضبه وكأنه عباءة تسقط على الأرض. بدا على صوته القلق وهو يتابع:

ـ أردت يا صغيرتي بكل رغبة أن تأتي إلي بارادتك لتعترفي بمشاعر رفضت حتى الآن الاعتراف بها.. أردتك دافئة، ناعمة محبة، وهذا ما أنت قادرة على أن تهبيه، وتشوقت الى أن أراك على هذه الصورة. ربما من البلاهة مني أن أقول لك ما هو المفتاح الذي قد يفتح لك ذهنك المرتاب... لكنني أود لو تستخدمينه، كآخر ملاذ وعندها سيكون نصرك أحلى بكثير. لو أعطيتني الحب لتغلب على الشك.. قد أحصل عليك بالقوة، يا زوجتي... ولن تجدي في عزلتنا هذه ما يسمع احتجاجك إلا طيور البحر، والامواج الضاربة الكفيلة بإخماد صدى صراخك.

ارتدّت مذعورة من تهديده فوضعت أمتاراً بينهما.. لكنه قال بلهجة جافة:

ـ لا تخافي.. فأنا لست تماماً ذلك الحيوان الذي تظنينه.

سأنتظر قليلاً بعد، على أمل أن تقرر القطة الصغيرة إخفاء مخالبها.

توترت أعصابها لأنها رأت شيئاً ما خاصاً في تصرفاته.. رأت الثقة والطمأنينة التي لم تكن من قبل وجسداً هانئاً وابتسامة سرية تتلاعب على أطراف فمه الذي يحمل ثقة بأن النصر آت عاجلاً أم آجلاً. وقفت ورأسها محنيّ، كان يجذبه كالمغناطيس خيال موشح يستحم تحت ضوء النهار.

ـ اليكس...

سرت في أوصالها رعدة حين امتدت يداه لتمسكا بكتفيها:

ـ لماذا يجب أن تقاوميني دائماً؟ لقد تعبت من هذه الحرب... الحياة قد تكون رائعة لو القيت سلاحك. ليس بسبب الهزيمة، إنما لأن هذا النوع من الاستسلام حلو.. أحبك! فتعالي إلي! حبيبتي.. أرجوك!

ترددت وهي ضمن دائرة ذراعيه، اللتين هما شرك ناعم جميل. ها هو يعرض عليها الخيار بين أن ترمي نفسها فيه أو تهرب منه. وكادت تلتقط الطعم، تحثها ضربات قلب، وشوق جسد الى لمسته، وارتعاش فم جائع الى قبلته.. إنه ذكي كالشيطان، صياد بشباك حريرية، نمر يفضل أن يتملق بدل أن يهجم.

احتاجت الى إرادة هائلة لتتخلص من سحره.. ارتدت عنه مرتجفة باكية، حتى أصبح عرض الغرفة بينهما.

ـ آسفة.. لا أستطيع القبول.. فلن أكون المرأة الثانية في حياتك بعد جانيت.

جمد في مكانه.. ثم قال:

ـ لو أردت الزواج من جانيت، لما تزوجتك أنت؟

ضحكتها المتصنعة رنت ببرود في الغرفة:

ـ بالطبع كنت ستتزوجني فأنتما تريدان الحفاظ على مستوى رفيع في العيش هو بعيد عن امكانياتكما! فكلاكما بخيل شحيح الموارد.. يا سيد.. وجشع البخيل يدفن كل عاطفة!

* * *

١٣ ـ الآن أو أبداً

تجنبت اليكس تناول الفطور مع تيغر خشية أن تصاب بدوار عاطفي مرة وبخيبة أمل أخرى. لكنه بحث عنها، سائراً بكل سهولة في الممر المفضي الى الشاطىء الذي وجدها فيه جالسة تفكر، عابثة بكومة غير عادية من أصداف البحر كانت قد أمضت ساعات الصباح الأولى في جمعها.

ـ لقد وعدنا جدتك بزيارتها.. أنسيت؟ أعتقد أن هذا اليوم مناسب!

ـ سأحب هذا كثيراً، سأبدّل ثيابي.

وسبقته الى الڤيلا، فارتدت بعناية ما يناسب الزيارة، راغبة في الحصول على قبول الجدة تينا.. فارتدت ثوباً أخضراً زاهياً من الحرير. ثم سرّحت شعرها حتى أصبح ناعماً لماعاً كستارة من حرير أحمر متدلٍ فوق كتفيها.

لجزيرة ريثمنون الصغيرة جو يختلف عن كل الاجواء في شبه جزيرة لا كونيا.. إنها جزيرة يسكنها صيادون ولدوا مع البحر، وهي مقسمة الى وحدات سكنية منسقة، بينها مصانع صغيرة لتصنيع السمك وتوضيبه، إضافة الى معاصر الزيتون، ومراكز لتعبئته.. سقوف أبنيتها من الآجر الأحمر ولهذه الأبنية

مداخن مرتفعة سوداء، وأمام كل منزل يشرف على البحر مراسي من الخشب.

وكأنما كان تيغر يقرأ أفكارها:

ـ إنه لمن المؤسف أن تترك جزيرة كهذه مهملة.. كانت ريثمنون في زمن ما تعتبر مرتع التنزه لدى الاسبارطيين وكانت مكسوة بأشجار الفاكهة والبرتقال والزيتون والكرمة، وقد سكنها في تلك الأيام أرستقراطيون واستقروا في ڤيلات فخمة.. لكن هذا كان قبل بناء مصانع توضيب تعليب السمك... حيث أصبحت فيما بعد المورد الرئيسي للسمك في المنطقة.

ـ أصحيح أن كل السموم تتلاشى أمام قطرة من زيت الزيتون المنتج في هذه الجزيرة؟

ـ هذه نظرية رومانسية.. ثبت بطلانها أكثر من مرة.. فزيت الزيتون نافع ولو كان من انتاج أي أرض كان. مع ذلك أعلم أنك تتمسكين بأوهامك، ولا شك عندي في أنك ستستمرين في الايمان بأن هذه نظرية صحيحة.

ردت بمرارة:

ـ أتلومني إن كنت أجد الوهم أجمل من الحقيقة!

كان مايزال مقطب الجبين حين أوقف المركب أمام منزل جدتها، الذي تبعث شرفته السوداء من جراء تراكم دخان مصنع قريب، الانقباض في النفس.

صاحت إحدى الجارات متكئة على نافذة منزلها:

ـ السيدة خرجت لزيارة صديقتها! أوه.. هذه أنت آنسة كورديس! جدتك ستعود بعد وقت قصير. إنها نادراً ما تغيب

عن منزلها أكثر من ساعة، ولم يمضِ على غيابها إلا عشر دقائق... أترغبين في دخول منزلي والانتظار؟

ـ شكراً لك.. أنت لطيفة جداً.. لكن أرغب في زيارة مصنع التعليب، فأرجو أن تبلغي جدتي حين تعود بأننا هنا.

ـ حاضر يا آنسة.. سأفعل هذا.

التفتت اليكس الى تيغر وكأنها تعتذر:

ـ أتمانع لو زرنا المصنع؟

ـ لا.. فقد مضت سنوات منذ أن زرت فيها هذه الناحية..

لم تكن اليكس تجد جيران جدتها لطفاء. وكانت تعذرهم لأنهم ذاقوا الأمرين من الفقر والعمل الشاق. إلا أن ما أدهشها هو الطريقة التي استقبل فيها العاملون تيغر. كان كل رجل يتوق الى أن يصافحه، وبعضهم راحوا يصيحون مرحبين. وقد تقدَّم منهم مالك المصنع نفسه مرحباً. فقادهما ليريهما مصنعه بكل فخر.

أحست اليكس بالاستياء، فجدَّها عمل مدة طويلة في هذا المصنع ومع ذلك لم تتلقَ من العمال القدامى الذين يتذكرونه إلا تحيات مؤدبة. لقد رحبوا بها لكنهم رحَّبوا به أكثر بكثير.

سار اليكس وتيغر جنباً الى جنب، كان يضع ذراعه حول كتفيها، ويقودها لتتعرف على مراحل التصنيع، وراح يذكر لها معلومات دقيقة عن المصنع تدل على دراسة عميقة لا على معرفة سطحية كمعرفتها، في هذه الأثناء كانت وجنتاها مضرجتين لا من الحر بل من الإحراج بسبب تعليقاته الخبيرة.

كانت الجدة تنتظرهما أمام الباب حين عادا الى منزلها.

استقبلتهما بقبلة، ثم أدخلتهما الى الداخل، لتلقي نظرة متسائلة على وجه اليكس الشاحب. لكنها لم تعلق على ذلك حتى جلسوا جميعاً بارتياح في غرفة الجلوس المرتبة النظيفة. حين صبت القهوة، وقدمت طبق البسكويت اللذيذ.. ارتدت الجدة في مقعدها لتقول لتيغر موبخة:

ـ توقعت أن أرى حفيدتي مشرقة يا سيد.. وبدلاً من هذا أجدها حزينة شاحبة وكأنها راهبة.

تورد خدا اليكس.. فمن الصعب جداً خداع جدتها ذات العينين الشديدتي الملاحظة واللسان السليط.

لكن تيغر لم يحرج. بل نظر الى اليكس، والارتباك في عينيها وقال بخفة:

ـ يجب أن تعلمي سيدتي، أن اليكسندرا مخلوقة ذات أمزجة متضاربة. فقد ترينها يوماً غاضبة، وفي الآخر رزينة.. إن الرجل لا يستطيع الاستيقاظ كل يوم ليجد أمامه زوجة مختلفة.. ويجب أن أعترف أنني أجد هذا تحدياً مثيراً للاهتمام.

بدا السرور على الجدة تينا:

ـ جيد.. فهي تتطلب تفهما أكثر من غيرها كما تحتاج الى بعض الحزم، لكنني أرى أنها بين أيدٍ عطوف. والآن.. ألديك أخبار؟ حدد ساشا وڤيتار يوم الزفاف الذي سيُقام في الأسبوع المقبل. لقد عارض والدك، في البداية، فقد أرادهما أن يتريثا على الأقل حتى تعودا من شهر العسل. لكن بعد الضغط رضخ. واقتنع أن ابلاغكما قبل يوم أو يومين من انتهاء شهر

العسل ليس يمزعج لكما، لكنه اشترط ألا تعرفا حتى اللحظات الأخيرة.. وسيرسل لكما رسالة قبل يوم من موعد الزفاف لاستدعائكما للحضور. وقد جعلت زيارتكما لي اليوم إرسال الرسالة غير ضروري. لقد انتهت كل الترتيبات، وأرسلت الدعوات، وكادت تنتهي ترتيبات الزواج.. أليس مثيراً إجراء عقدَي زواج في شهر واحد؟ أعتقد يا اليكس أن والدك يشعر بالارتياح والسعادة، فمسؤولية السيطرة على ابنتين متمردتين أمر صعب. وأنت يا كونت، يجب أن تكون سعيداً لأن مستقبل ابن عمتك قد استقر.. إن زواج ابن خال وابن عمة من شقيقتين لترتيب رائع.. إنه مفيد جداً.

مفيد! الفائدة كلها من جهة واحدة.. كان تيغر وڤيتار معروضين للبيع، واعتبرهما والدها استثماراً جيداً.

أصبح مزاجها عكراً ومتقوقعاً وبقيت على مزاجها هذا حتى آن أوان رحيلهما، فجذبتها جدتها جانباً وأظهرت نفاد الصبر معها:

ـ لست أدري ما أستطيع فعله بك اليوم يا اليكس! كانت أخلاقك سقيمة. خاصة نحو الكونت الجذاب الساحر المهتم بك. بدأت ارتاب في أن الدلال أفسدك يا طفلتي.. ألا تظهرين بعض التقدير لزوجك؟

التقدير على ماذا! لكنها تمكنت من الابتسام.. التقدير على أن والدها اشترى الكونت؟

حين أدار تيغر المركب في نصف دائرة كبيرة، استعداداً للعودة الى ذلك الشاطىء المستوحش، أحست بأنها سجينة تعود

الى منفاها. فجلست صامتة، على وجهها تعابير الرزانة، تحاول التفكير بكل فكرة على حدة وصولاً الى حل لهذا الوضع الذي أضحى أكثر وأكثر أشد وأصعب. أثرت أخبار جدتها على امكانية تحررها.. فلا بدّ أن يد أبيها، بعد أن مضى قدماً في ترتيبات زواج ساشا، مغلولة الآن. والغاء الزواج في مرحلة متأخرة كهذه سيسبب التعاسة لأختها والاذلال لكرامة عائلة بيرتاكس.. لذلك، فالخلاص ليس ممكناً الآن.. وستبقى المشكلة لكن حتام؟

حين حاول تيغر مساعدتها في السير عبر الممر الموصل الى القيلا.. نفرت منه كارهة لمسته... وصلت إليه رسالة ثورتها وقد بان ذلك من خلال نبرة صوته حين أوقفها قرب الشجيرات الشائكة قائلاً ببرود قاطع:

ـ إني أستنتج أن طريقتي في معاملتك كانت غير صائبة. ظننت أن الصبر هو ما أحتاج إليه.. وقلت لنفسي إن هذه الطفلة ما إن تبتعد عن أبيها وتسامحه حتى تتطور وتصبح امرأة ناضجة. لكن مع مرور الأيام أصبحت أكثر عناداً وعدائية بل أشدّ مزاجية. حقاً بت أجد صعوبة في كبح اندفاع يحثني على أن أمددك على ركبتي لأنزل بك العقاب اللازم!

ثم شدها إليه بخشونة لم تختبرها منه فقد برقت عيناه ببرود وهما تطوفان على وجهها المتحدي، وتتحدیانها أن تثور:

ـ حسناً.. ماذا تفضلين.. الصفع على مؤخرتك أم العناق؟ أنا صبرت على هذا الوضع لأننا وحيدان معزولان لكن عزلتنا ستنتهي عما قريب، وعندها ستحيط بنا العائلة التي ستتساءل

عن هذه التصرفات.. وأنا أرفض كل الرفض أن أتعرض لملاحظات كالتي تفوهت بها جدتك.

تقدم رأسه منها حتى أصبحت شفتاه على بعد سنتمتر من شفتيها.. وتمتم:

ـ العجوز على حق.. أنت تبدين تماماً كالراهبة الطاهرة.. وسيكون من واجبي أن أصحح هذا الوضع. وأعدك عندما نترك هذه الجزيرة يا عزيزتي، بأن أشبع فضول كل شخص يراك إذ ستكون نظرة واحدة الى وجهك المؤثر، كافية للتأكيد على أنك اختبرت حلاوة الحياة التي هي مكافأة كل عروس شابة مطيعة!

جعلها الذعر تلتجىء الى تصرفات التلاميذ الذين كانوا ومازالوا يتصرفون تجاه السلطة بفظاظة.. انتزعت نفسها منه وولت هاربة الى الڤيلا حتى وصلت الى غرفة نومها، التي أسندت على بابها ظهرها لتحل محل القفل المحطم. لكنه لم يتبعها. فانتظرت ما يقرب من نصف ساعة، حتى استسلمت تدريجياً الى الاسترخاء.

تمتمت لنفسها: حسناً اليكس! الآن.. أو.. أبداً.. فهذه ليست تهديدات عفوية.. بل هو يعني كل كلمة قالها.. وهذا يعني أن عليك ترك الڤيلا الليلة على الأقل!

ذرعت غرفتها بتوتر تفكر حتى أرهقها التفكير.. لكنها في النهاية توصلت الى خطة هرب إثر الأخرى ثم عادت فصرفت النظر عن كل واحدة منها بعجز. فإذا حاولت الهرب بالسيارة فسيأتي راكضاً حالما يسمع صوت المحرك، هذا إذا كانت محظوظة فوجدت المفاتيح.. أما إذا ذهبت سيراً الى الكازينو،

فلن تجد مركباً يقلها وسيفتقدها قبل أن تصل الى البلدة، فكرت في طلب العون من ماريكا لكنها عادت فصرفت النظر عنها لأن هذا سيكون حملاً ثقيلاً على ضمير الفتاة، التي رغم تعاطفها معها، تشعر بواجب الإخلاص لمخدومها.

ثم تذكرت سرعة لحاق تيغر بها عندما رسا بالقارب.. أنسي المفاتيح في القارب السريع؟ وكانت كلما أمعنت التفكير في الأمر كلما اقتنعت بأنه نسيها. لكن من الخطر التسلل لرؤيتها. لأنها إن فعلت قد يتذكر تيغر ولن تجرؤ على هذه المخاطرة.. يجب أن تتصرف بحذر كأن تظهر سحرها خلال العشاء حتى لا يدرك ما تفكر فيه.. ثم يجب بعد انتهاء الوجبة وحلول الظلام، الذي سيوفر لها غطاء مناسباً، أن تختلق عذراً لتتركه فترة. وإذا كان تمثيلها مقنعاً، فقد تكون على مقربة من اليابسة قبل أن يبدأ بالسؤال عن طول غيابها.

بذلت جهداً كبيراً في العناية بمظهرها.. فالثوب الذي سترتديه يجب أن يكون فاتناً لكن دون أن يعيق حركتها حين تركض الى الشاطىء. وقد وقع اختيارها على تنورة واسعة بنية اللون وسترة مناسبة ذات أكمام طويلة تقي ذراعيها من برد الليل.. فالسرعة هي أساس النجاح في فرارها وبما أنه لن يكون أمامها الوقت حتى تلف وشاحاً حول كتفيها. لفت وشاحاً حريرياً حول خصرها كحزام، قد لا يرد عنها البرد كثيراً لكن سيمنعه عن عنقها ورأسها.. وأحست بالفخر والذكاء الخارق حين التفتت أمام المرآة، ثم بدأت تسير، وكأنها ممثلة تتجه لتأدية دورها فوق المسرح.

وسرعان ما شرعت في التجربة. فقد دفع تيغر باب غرفتها ودخل. لينظر الى جسدها بعين الرضى.. نظرة جريئة مليئة.. بماذا؟.. بالترقب؟

ارتجفت داخلياً وأجبرت نفسها على الابتسام، وتحركت نحوه.. بدا عليه الرضى، واعترف بهذا:

ـ كنت أتوقع أن أجدك مقطبة مرتدية أبشع الثياب في محاولة لتبريد حماستي.. لكن كالعادة أدهشتني بظهورك الفاتن. ترى هل أسأت الحكم عليك مرة أخرى؟ هل أصبحت فجأة ناضجة وحكيمة راضية بما سيقع من أمر حتمي؟

تمسكت بحاجتها للدبلوماسية، وقاومت رغبة في الصراخ والخدش، فقالت بنعومة:

ـ المجادلة في أمر محتوم مضيعة للوقت. فبدلاً من مقاومة العاصفة، أرتدي معطفاً واقياً.

ـ أهذه هي طريقتك في الاعتراف بالاستسلام؟

ضحكت غضباً:

ـ ربما.. أمهلني بعض الوقت تيغر.

ثم أسرت لبه تماماً حين اعترفت له بضحكة تخطف القلوب:

ـ قد تعتقدني غبية.. لكنني في الواقع.. أحس.. بالخجل.

ولم يلبث أن أمسك ذراعها بحنان ورافقها الى غرفة الطعام.

* * *

١٤ ـ جارهما القمر

أثناء تقديم العشاء، ذهلت اليكس بمدى غفلة تيغر عن الفخ الذي حضرته، وبلهفته لابتلاع الطعم. تناولا الطعام على ضوء الشموع... يتحدثان قليلاً بسبب انشغال اليكس بمحاولة تجنب البكاء، ورغبة تيغر بعدم استعجال ساعة النصر التي لاحت له وشيكة، وبقي قانعاً بالانتظار حتى تنتهي الوجبة، وتعود ماريكا الى منزلها.

هنأت اليكس نفسها على ادائها الجيد، فلولاه لما كان يجلس هكذا قبالتها كقط متخم، ناعس العينين، مستعداً لمشاركتها اللعبة لدى أول اشارة منها. لكن ملاطفة النمر وحدها لا تكفي فمن أين لها الشجاعة الكافية لجرحه؟

حين انتهت الوجبة، قدمت ماريكا القهوة، ثم نظفت الطاولة.. وبعد ذلك، بوقت غير طويل، أطلت ماريكا رأسها من الباب قائلة:

ـ عن اذنكما، سيدي وسيدتي، سأذهب الآن. إلا إذا كان هناك ما ترغبان..؟

قاطعها تيغر برغبة واضحة في أن يترك وحيداً مع زوجته الجميلة:

ـ لا شيء شكراً لك.. تصبحين على خير.. سنراك غداً.

إذن لقد حان وقت اللعب!

ـ هل نذهب الى الصالة طلباً للراحة؟

وقفت اليكس، اشارة الى موافقتها، ثم ترددت قليلاً، واتسعت عيناها وكأنها تذكرت أمراً:

ـ أوه.. ما أشد اهمالي كنت أشعر طوال العشاء، بالشك يراودني. والآن عرفت السبب! لقد أشعلت سيكارة قبل أن أدخل غرفتي ولا أذكر أنني أطفأتها. هلا عذرتني سأصعد للتأكد.

ـ لا تزعجي نفسك.. سأذهب أنا...

لكنها كانت في منتصف الطريق الى الباب، فقالت مصرّة:

ـ لا.. لن أتأخر أكثر من دقائق.

أقفلت الباب خلفها بسرعة، ثم ركضت بأقصى ما لديها من قدرة الى المدخل الخلفي ومنه الى الحديقة، فالممر الطويل، تبارك بعد نظرها لاختيارها خفّاً منخفض الكعبين. اندفعت الى الامام دون أن تلقي نظرة الى الوراء.. حين وصلت أخيراً الى المركب قفزت إليه، وأخذت تتحسس في الظلام بحثاً عن المفتاح الذي من دونه لن تقدر على تشغيل المحرك. فتشت خلال خمس دقائق، تشهق من لهفتها، غير قادرة على أن تصدق أنه غير موجود.. ثم رمت بنفسها فوق مقعد المركب ترتجف من برودة اليأس.

ـ المنافقة.. هو اسم المرأة اليكسندرا بيرتاكس.. أهنئك يا جميلتي على تمثيلك الكذبة بصدق مذهل.

قطع سكون الظلام صوت مرير مثقل بالاتهام. اخترقت كلماته قوقعة يأسها، وأرسلت الحرارة الى شرايينها في الوقت الذي راح غضبها يتصاعد... فقفزت من المركب ووقفت أمامه.. وقالت تهمس همساً:

ـ أتجرؤ على دعوتي بالمنافقة! أنت يا من لم تتردد في الزواج مني قبل أن تقطع علاقتك بجانيت.. أنت يا من تتحدث عن زوجة راغبة محبة، وأم لأطفالك، والجميع في اسبارطة يعرفون، أن كل ما تريده حقاً هو حصتك من ثروة أبي!

لمعت عيناه الذهبيتان في الظلام، تبعثان القشعريرة في النفس، وترسلان شرارات نارية تشبه شرارات نمر غاضب ثائر.. أحست في داخله عنفاً لم تختبره فيه من قبل، فبدأت ترتدّ.. لكنها ما خطت أكثر من خطوة حتى وثب الوحش الضاري غارزاً أصابعه الضارية في كتفيها وشدها الى الأمام يهزها بعنف حتى اصطكت أسنانها وحتى كاد يخلع رأسها من بين كتفيها. وفي الوقت نفسه كان ينفث كلمات مسمومة من بين أسنانه:

ـ أيتها المتوحشة.. السليطة اللسان! هذه المرة تجاوزت حدك في تجربة صبري.. وقررت أن أروّضك!

أحست بالخوف يُقدم الى مساعدتها، خوف من هذا الغريب الشرس الذي حل مكان الطيّع الاخلاق الصعب الاثارة.. الكونت الذي كان يتحمل اهاناتها، بابتسامة شامخة من طيشها الطفولي حاولت بكل ما تملك من شراسة التخلص من قبضته، لكن حين اصطدمت محاولاتها بالفشل، لجأت الى

آخر سلاح دفاعي لها، بأن مدت مخالبها لتخدش خديه.

ـ أيتها الشيطانة اللعينة!

رفع يده الى خده.. وما إن أصبح كتفها حراً حتى انتزعت نفسها منه وهربت في الظلام.

تداخلت الأشواك تحت تنورتها الطويلة، تعيق من تقدمها وتخبطت خطواتها على العشب النامي وفوق الصخور والحجارة وأخيراً وصلت الى امتداد صلب من الرمال.. فشهقت أنفاساً حادة مؤلمة، ورفعت تنورتها لتركض كالعمياء، لا تعرف ولا تهتم الى أين قد ينتهي بها المطاف.. إذ كان همها أن تضع ما تستطيع من مسافة بينها وبين الرجل الذي تسمع وقع أقدامه وراءها. كان الرعب يتصاعد في داخلها كأجنحة طير كاسر... فجأة تعثرت وسقطت ففقدت بذلك لحظات ثمينة. أكد لها احساسها المذعور بأن تبغر دنا منها أكثر فأكثر حتى كادت تحس عندما وقفت بحرارة أنفاسه على مؤخرة عنقها.

صرخت بعنف حين أرسلتها ضربة عنيفة على ركبتيها جعلتها تنكب على وجهها فوق الرمال. ثم لم تلبث أن ألقتها يدان قاسيتان على ظهرها. كانت مذهولة حتى لم تستطع إلا التحديق بتحد في الوجه غير النادم.

صاحت بفم مليء بالرمل:

ـ حيوان! تصرفت معي بطريقة غير لائقة ولا عادلة. فهذه الحركة لا تليق إلا بلاعب المصارعة على حلبة المصارعة!

ـ كما أن ردات الفعل العسلية لا تليق إلا بشفتي امرأة تنوي أن تفي بقسمها.

وضغط جسده على ساقيها، ثم أمسك بمعصميها وثبتها على الأرض حتى باتت عاجزة عن الحراك.

ـ والآن.. ستصغين لما لدي من أقوال!

أحست بالرجفة من تهديده، لكنها كانت عاجزة عن ابداء أية مقاومة إلا الكلام.

ـ تحدث ما شئت طوال الليل لكن أعلم أنني سأرفض بكل بساطة تصديق أي كلمة تقولها.

مارس أقصى درجات الضبط على النفس، وتجاهل تعليقها:

ـ فلننته بادئاً من أهم مسألة.. أعني جانيت. كنتُ وجانيت صديقين منذ الطفولة. وهذا ما جعلها، ربما تحس بأن لها الحق في إبداء الرأي في كل ما أفعل.. ولست أدري.. لكن ما أعرفه تماماً أنه لم يكن هناك في يوم من الايام أي انجذاب بيننا.

توقفت داخل نفس اليكس أجنحة الخوف عن الخفقان، وتسمّرت تصغي إليه، ولو على مضض.

ـ كان عليّ أن أعرف لؤمها وشرورها، أن أحذرك من ميلها الى التظاهر الدرامي والى ابداء تلميحات تخلو تماماً من الصحة... كانت جانيت، في الاسابيع الأخيرة، أبعد الناس عن تفكيري. والآن، بعد أن قبلت زواجنا على أنه أمر واقع ستكتشفين فيها صديقة وفية، تناصر الصديق وإن كان ظالماً، ولأنها كانت تجهل وضعنا قالت لي: «تمنّ عليّ الحظ الذي تمنيت به» وكانت تعني الحب، لا المال كما اعتقدت.

حين أطلقت اليكس صوتاً يدل على السخرية «هاه!» انتفض لكنه أكمل بخشونة:

ـ والآن فلنأت الى المسألة الثانية التافهة، الى المسألة التي جلبت عليّ القلق الكبير وهي المال، كنت آمل أن أشرح لك هذه المسألة في ظروف ملائمة بل اعتقدت من شدة غباتي أنك بعد معاشرتي ستزول شكوكك. لكن، بما أنك مازلت متحاملة عليّ، وغير متجاوبة مع المنطق، أظن أن الوقت قد أزف لأقول لك إنني بعيد عن الفقر كل البعد، وإنني أستطيع مقارعة ثراء والدك، قرشاً بقرش!

فتحت أهدابها المليئة بالرمل، فكشفت عن اخضرار عينيها اللامعتين.. وقالت بازدراء:

ـ لا بد أنك تعتبرني بلهاء لأصدق كلامك!

قست قسمات وجهه المتسامحة.. فلم يعتد على ما يبدو أن يتهم بالكذب.

ـ قد أعطيك البراهين متى شئت.

وبدأ يسيطر على وجهه ملامح من يكره التطرق الى هذا الموضوع برمته، وقالت له:

ـ ما كان والدي ليخفي عني هذا الامر.

ـ طلبت من والدك شخصياً أن يتجنب هذا الموضوع... لأنني لم أرغب في أن تعرفي.. لكنني على كل الأحوال ساحرره من وعده، ولك أن تسألي أي انسان تريدين وسترين أنه سيجيب عن سؤالك قائلاً لك إنني بعيد كل البعد عن الكسل، وإنني منذ سنوات عدة أعمل في مجال صيانة آثار مدينتي

العريقة.. وخلال هذه السنوات لم أكسب فقط سمعة الخبير، بل كمية محرجة من الذي تبنين عليه كل هذه الاهمية: أعني المال. أنا لم أسعَ وراء هذا الثراء، فقد كان جل همي الحفاظ على آثار وأبنية لا تعوض لمصلحة الأجيال القادمة. وكنت أتمنى لو عملت مجاناً.

أغلقت اليكس أذنيها عن الصدق الذي يطل من صوته، فقد كرهت أن تصدق أنها أساءت الحكم عليه الى هذه الدرجة من السوء... إنها ترفض أن تصدق... ورغم معاناتها من نظرته الحادة.. استرخت، وكورت شفتيها على شكل ابتسامة، لتسأل بنعومة ساخرة:

ـ هل لديك المزيد من القصص الخرافية لتقصها عليّ؟ إذا لم يكن هناك شيء آخر فأطلق سراحي حتى أعود الى الڤيلا.

حدق تيغر إليها فترة طويلة، بعينين اسودتا غضباً.. كان القمر الضخم يبحر خلال الغيوم، ليحمم بنوره الفضي الفتاة الممددة على الرمل، وكأنها ضحية تنتظر أن يوقع بها العقاب.. ويبدو أن المنظر أثر في تيغر فقد ظهر الوميض الذي كانت تخشاه وبعث الرعب فيها، وحين انخفض رأسه الأسود بطيئاً باتجاه فمها الذي ارتجفت شفتاه ذعراً:

ـ لم انتهِ منك بعد يا حبيبتي.. ألم تسمعيني أعد أن أروض وحشيتك قبل أن نغادر الجزيرة؟

حين أطبقت شفتاه عليها أحست كأن عظامها ذابت فوق الرمال، تاركة وراءها جسداً ضعيفاً، عاجزاً تحت رحمة يدين تشعلان ناراً ملتهبة على كامل جسدها، حيث تجولتا طويلاً...

ضحك بنعومة، متنعماً بسيطرته، مكتفياً بأسرها في سحره.

لكن ضحكة النصر الصغيرة تلك كانت سبباً في إبطال سحره عليها.. فقد كانت كسوط لاذع أيقظ كرامتها، وأرسل طعنة نجلاء الى تفكيرها الهاجع.

دست النعومة التي تذيب العظام في صوتها:

ـ تيغر..! حبيبي! يا لي من بلهاء...

فتنفس الصعداء، ثم استرخت قبضته الآسرة عنها، وعانقها بحب، فراحت تسرّ في أذنه رسائل هامسة نادمة، وفي الوقت نفسه راحت تمد يدها خلف ظهره بحثاً عن شيء ما في الرمال تدافع به عن نفسها.. وكادت تشهق حين أطبقت أصابعها على حجر كبير.. ولم تمهل نفسها وقتاً لتفكر، بل أمسكته ودفعته بكل ما أوتيت من قوة على رأسه المحني فوقها.

نظرت إليه مذعورة مصدومة تحس بالغثيان ثم تسللت من تحت جسده بعد أن غاب عن الوعي وحملت قدميها وولت هاربة لكن هذه المرة نحو الڤيلا.

كانت شهقات عظيمة تخرج منها بحدة وألم، وهي تجبر نفسها على عدم إلقاء نظرة الى الخلف أو على عدم التفكير في الجسد الممدد بعجز فوق الشاطىء. عليها أن تصل الى السيارة قبل أن يستعيد وعيه. فهذه آخر فرصة للهرب من وضع أصبح ميؤوساً منه الآن..

كانت الدموع تتدفق على وجنتيها حين دخلت متعثرة الى الڤيلا.. ثم ركضت الى غرفة نوم تيغر.. حيث أملت أن تجد مفتاح السيارة. كانت ترتجف حتى كادت تعجز عن فتح الباب،

لكن بعد عدة أنفاس عميقة استطاعت السيطرة على أعصابها وفتحته، راكضة الى الداخل فإذا الغرفة فارغة، وكأنها غرفة راهب... لكن وبينما هي في الطريق الى طاولة الزينة أحست بوجوده القوي وكأنه جسدي.

كانت رائحة خفيفة من عطر الحلاقة تفوح من وراء باب نصف مفتوح يقود الى الحمام.. وكانت هناك أيضاً رائحة دخان سيكار.. وبينما كانت أصابعها المرتجفة تفتش بين الأشياء على طاولة الزينة، اصطدمت بأزرار قميصه الذهبية فانقلبت، وإذا بصورة النمر أمام عينيها. أبعدت بسرعة يدها وهربت الى الخزانة، تفتح الباب بحثاً عن السترة التي كان يرتديها حين أوقف السيارة. بدا لها التفتيش في جيوب سترته خطيئة لا تغتفر، لكنها أجبرت نفسها على البحث. ففتشت بسرعة تدرك أن كل لحظة تمر تزيد من قرص ظهوره عليها غاضباً، مريراً.. متعطشاً للانتقام.

حين أطبقت أصابعها أخيراً على كومة المفاتيح، كان ارتياحها عظيماً حتى أنها استندت الى الجدار الى أن استعادت ما يكفي من قوة لتعاود هربها. وبينما كانت تركض من الدرج الى الردهة فالكراج، كانت تبارك حظها الطيب.. السحب قد اختفت، والبدر ألقى ما يكفي من نور جعل عليها عملية فتح أبواب الكراج سهلة. بعد لحظات، كانت توجه السيارة خارج الكاراج، مرتجفة الجسد. محنية الهام فوق المقود الذي تمسكه بأصابع متجمدة خوفاً.. لقد استطاعت أخيراً أن تتغلب على الكونت الذي طالما تغلب عليها في كل مناسبة.

ثم.. داست على المكابح فجأة على غير إرادة منها.. لماذا لم يتبعها تيغر بعد؟ إنه ليس ممن يعترف بالهزيمة.. إذن ما هو السبب المحتمل وراء عدم ظهوره؟

كانت مقدمة السيارة متجهة في الطريق نحو الكازينو.. بعد نصف ساعة تصبح هناك، ومع ذلك أوقفت المحرك. وشدت المكبح اليدوي، ثم نظرت متسعة العينين من النافذة وذلك بعدما صدمتها فكرة مرعبة. هل قتلته الضربة؟ أهو ممدد الآن على الرمال بسبب ضربة قاتلة وجهتها بيدها الى رأسه؟

وتأوهت، تغطي وجهها بيديها:

ـ أوه.. لا! أرجوك ربي.. لا!

ما عادت تذكر فيما بعد كيف عادت الى الشاطىء، إذ كان كل ما تراه أمام ناظريها منظر جسد تيغر ممدداً دون حراك على الرمال حيث تركته. فانطلقت منها أدعية غير مترابطة وتصاعدت من شفتيها شهقات معذبة أثناء ركضها على الممر، ثم ما إن دنت منه حتى رمت نفسها على ركبتيها.

وراحت تبكي:

ـ تيغر!.. تيغر.. حبيبي! أرجوك كلمني.. لا تمت! لا أستطيع تحمل موتك!

ما عاد لديها فكرة عما قالته أو وعدت به خلال خمس دقائق بدت لها عمراً طويلاً. فقد راحت تمدده على ظهره تمسح الرمل عن شعره وعن جبينه، وتربت على خديه بأصابع مذعورة:

ـ تيغر.. حبيبي! أحبك كثيراً!

فتشت في ذاكرتها عمّا تعرفه عن الاسعاف الأولي.. دست يدها داخل سترته بحثاً عن دقات قلبه، فأحست بالخفقات منتظمة تحت راحة يدها... فتنفست الصعداء ثم راحت تبحث عن تعليمات أخرى فتذكرت «قبلة الحياة».. أو التنفس الاصطناعي.. فوضعت كلتا يديها حول وجهه وأخفضت فمها الى فمه.

ما إن تلامست شفتاهما، حتى ارتدّ الى الحياة نشيطاً مثيراً... سحقتها ذراعاه وألهبتها شفتاه اللتان كانتا تتمتمان باتهامات خشنة وهو يلقيها على ظهرها فوق الرمال، ويتابع تأديبه لها بأروع طريقة ممكنة، على ألم القلب، والعذاب، والاحباط، والألم الذي سببته له خلال الاسابيع المنصرمة.

كانت مصعوقة، مقطوعة الأنفاس، مرتبكة كل الارتباك.. لكنها أدركت أنه خدعها. ورغم ذلك غمرت بهجتها بنجاته كل شيء في هذه اللحظات المذهلة فقد طغت على عذاب الضمير الذي قاسته حين ظنته ميتاً وعلى فكرة أن تعيش ما تبقى من حياتها دون مداعباته المزعجة.. وقبل كل شيء دون حنانه الذي كان يوقف قلبها شوقاً إليه.. هذه اللحظات اقنعتها بأن لا أهمية لمستقبلها العملي ولحريتها، أو لقلبها من غير حبه. كل ما أرادته الآن، أن تحس بذراعيه حولها، قبلاته تغمر وجهها، وبكلماته تملأ عليها كيانها وتذيبه. في تلك اللحظات بالذات كانت تسمعها همساً في أذنيها.

ـ أحبك.. يا حبيبتي! أوه.. يا كنزي! لقد كدت أفقد الأمل.. اخبريني ثانية ما قلته حين ظننتني لا أسمعك.. انظري

إليّ بعينيك الصادقتين ودعيني أرى الحقيقة معكوسة فيهما حين تتكلمين.

نسيت كل ادعاءاتها ودست ذراعيها حول كتفيه تحس بعضلاته تتوتر تحت لمستها.. واعترفت له بصوت ضعيف هامس:

ـ تيغر يا حبيبي أنا.. أحبك كثيراً حتى لا أكاد أستطيع العيش بدونك.

لم تكن قط مكافأة الاستسلام لذيذة هكذا... فقد احتواها بين ذراعيه وكأنه يمسك بأثمن الأشياء، وأرقها وانتزع بعناقه الرقيق قلبها من بين ضلوعها. كان عناقاً حدوده الإخلاص مدى الحياة ختم على قلبها، ووسمها الى الأبد، بوسمة التملك... باسم بيرتاكس.

لم يكن في السماء نجوم أكثر لمعاناً من عينيها، عندما كان يرفعها قلقاً على مصلحتها وصحتها كالعادة:

ـ هيا بنا حبيبتي.. فلنعد الى القيلا.

مدت ذراعيها مفتوحتين وكأنما تريد معانقة كل ما حولها.

ـ لكن.. لماذا؟

كانت مسحورة بجمال الليل وبالقمر الفضي وبابتسامته الفاتنة. وبتمتمات الأمواج الخفيفة فوق أقدام الشاطىء المتنهد بأغنية الحسد وبالفراش الرملي الدافىء الذي ضمهما بعناق حار..

هزها بلطف.. وقد تلاعبت ابتسامة تسامح على وجهه.

ـ السبب، حبيبتي، هو أن الهواء أصبح أكثر برودة. أضيفي

الى ذلك، أنني لا أريد حين تتذكرين ليلة زفافنا أن تزجريني لأنني تركتك تقضينها فوق شاطىء بارد غير مريح.

أحست بالارتجاف الذي سرى في عروقها، فشد ذراعه حولها.. وسألها بسرعة.

ـ أمازلت خائفة مني؟

دنت من قلبه تضع رأسها عليه.وتؤكد له بتنهيدة طويلة:

ـ لن أخافك أبداً.. تيغر.

ضمها حتى أحست بأنها طفلة مدثرة بعباءة من حب. وهزها كمن يهدهدها.. وهو يعدها:

ـ سأكون لطيفاً معك اليكسندرا. أتثقين بي؟

ـ دائماً.. والى ما لا نهاية يا حبيبي..

وترنحا معاً في طريق عودتهما الى القيلا. يجتازان الممر الذي يعرفان أنه يقودهما الى الجنة، ومع ذلك توقفا مراراً ليتعانقا، ويتداعبا، ويتحدثا... ليزيلا عن نفسيهما كل أثر للشكوك.

ـ لولا قلقي عليك، لكنت الآن على اليابسة في طريقي الى المدينة. لقد خدعتني بادعائك الاغماء.. ولقد عانيت العذاب الشديد ظناً مني أنك ميت.

ضغط عليها بشدة وقال ممازحاً:

ـ عظيم.. أنت تستحقين بعض المعاناة التي تكبدتها بسببك.. بعد أن ضربتني، صعقت للحظات، وحين تخلصت من دواري، كان أول ما تبادر الى ذهني أن ألحق بك. وأرميك في البحر أولاً، ثم أنفس عن غضبي بضربك على قفاك.

استدارت إليه ساخطة:

ـ لم تكن لتضربني..!

ـ أؤكد لك حبيبتي أنني كنت سأنزل بك عقاب الضرب، لكنني حين فكرت في الموضوع ملياً وجدت، انك إذا كنت قادرة على تركي هكذا فمن الواضح أنك لن تحبيني أبداً وان الحلم الذي اعتنيت به منذ أن رأيتك لا وجود له، وان عليّ أن أتقبل نهائياً أنك لست الفتاة المناسبة لي.

وتوقف في منتصف الطريق الى القيلا، ليمسك بوجهها الصغير، الذي تكسوه الجدية، بين راحتي يديه.

ـ شكراً لله على عودتك اليكس..! عندما كنت متمدداً هناك على الشاطىء أصغي الى هدير محرك السيارة التي ستبعدك عني.. أحسست بأني أهبط الى جحيم لا سبيل الى العودة منه ثانية. ثم.. عدت راكضة، تبكين فبدا لي فجأة أن من العذاب يولد الفرح..

بعد أن قبلها ليتأكد من أنها حقيقة لا خيال.. قالت له:

ـ قلت.. الحلم الذي اعتنيت به.. منذ أن رأيتني..؟

ـ يبدو أنك تجدين صعوبة في تصديق هذا.

ـ وكيف أصدّق، خاصة وأنني ظهرت في المرة الأولى أمامك مرتدية أبشع الثياب، وواضعة قناعاً من الدهون على وجهي.. كنت كالمهرج.

ـ لكن هذا لم يشكل أي فرق لدي. أعترف أن أول ردة فعل بدرت عني عندما ظهرت، متحدية ساخطة، أمام أقربائي المصدومين، كان الضحك أول اندفاع لي.. ثم رأيت خلف

الواجهة شجاعة ظاهرة، وأدركت أن وراء قناع الدهان، مهرج صغير يبكي.

فانضمت الى صدره أكثر:

ـ أوه تيغر.. يا لتسامحك. أنت تعرفني نعم المعرفة..

ـ أصبحت جزءاً مني ومن قلبي. معك أسمع كلمة واحدة وأفهم اثنتين. لا آسف إلا على ما أضعناه من وقت طويل.

انحنى ليحملها بين ذراعيه بعد أن لاحت القيلا أمامهما.. وتابع:

ـ أنا جشع جداً يا زوجتي الصغيرة. فإذا كانت الحياة ثابتة كرسوخ الجبال، لن أهتم.. لكن إذا كانت مراوغة كأطياف السمك اللامع في الماء، فكل لحظة ثمينة يجب أن نحسب لها الحساب.

رفس بنفاذ صبر باب القيلا ففتحه.. ثم حملها وأدخلها الى البيت.

سمع لوقت طويل في أرجاء القيلا أصوات حركة وضحكات، ثم راحت الأنوار تنطفىء الواحد تلو الآخر.. ولم يسمح إلا للقمر المبتسم وحده أن يشارك العروسان خلوتهما السرية.

* * *